رؤى المدينة المقدسة

قصص

دار العين للنشر

أميمة صبحي

رؤى المدينة المقدسة

رؤى المدينة المقدسة

أميمة صبحي

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٥٠٥٢/ ٢٠١٨
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 529 - 2

رؤى المدينة المقدسة

قصص

أميمة صبحي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

رقم الإيداع/ /٢٠١٨

إلى عبد اللـه، مع حبي

وجلس آخرون في عزلة على تل بعيد
يتطارحون أفكارًا أسمى وآراءً أعمق
عن العناية الإلهية والعلم الأزلي والإرادة والقدر
القدر الذي لا يحول والإرادة الحرة والعلم الأزلي المطلق
فلم يهتدوا إلى شيء بل ضربوا في الشعاب، فضلوا وما اهتدوا.

جون ميلتون
الفردوس المفقود
الكتاب الثاني ـ الأبيات (557 ـ 561)

المحتويات

- الطرق الفرعية الأخيرة 11
- كيف الذهاب يا زيزي 21
- ما وراء الشجر 31
- الدفتر الأزرق 39
- إله السينما الصيفية 49
- ماذا حدث منذ قليل؟ 59
- موسيقى الممر الخلفي 77
- حجرة السيدة "س" 89
- الأمانة 97
- الطاووس 107
- الرأس الذي كُشِفَ غطاؤه 117
- حصاد السافانا 129
- آخر أيام الخطيئة 147

الطرق الفرعية الأخيرة

لم تبدِ نجلاء رغبتها في قيادة السيارة أبدًا، لذلك اندهش رمزي حين أصرت أن تقود.

كان الوقتُ مبكرًا. ارتدت بنطلونًا جينزًا مريحًا وبلوزة قطنية واسعة، وبحثت عن حذائها الرياضي المنسي. وفي حركة سريعة، قبل أن يمد يده للمفتاح، احتضنته وقبّلته قُبلة ساخنة طويلة، ثم سحبت مفتاح السيارة وأعلنت بدلال أنها ستقود هذه المرة. قائلة: "ثق بي، لن أهشم عظامك اليوم".

كان يعرف أن قُبلتها غير حقيقية. قُبلة ساخنة مدروسة بحِرَفية. فالقبلات الحقيقية مرتجلة، لكن قُبلتها واعية. دسّت لسانها بين أسنانه في عَجَلة ولَوَت شفته السفلى. يكاد يجزم أنها لم تكن مُغمضة العينين. شعر بها تراقبه وتقيس مشاعره بقدر المسافة الصغيرة بين جفنيه.

"لن نستخدم المصعد"، قالتها نجلاء بحيوية وسحبته من يده تجاه الدَرَج. نزلت أمامه قافزة الدرجات برشاقة كأنها فتاة صغيرة. غير مبالية

بالالتهـاب الغضروفي أو خشـونة مِفصل ركبتها اليـسرى. كانا في بداية العِقد الخامس من عمريهما. لكنها ما زالت جميلة، ذات جسـد مشـدود، فارع، مناسب لعارضة الأزياء التي كانتها طوال حياتها.

منذ أيام، كانت عارية تـمـامًا في سريرها. تمطعت فوق فراشـها بقوة، وكأنها تشد أوتار جسدها، ثم نهضت متكاسلة. كان الوقتُ متأخرًا، خيوطٌ من الفضة تتسلل من نافذتها الطويلة وتنعكس على المرآة أمام السرير. وقفت تتأمل البطن المشدود بإرهاق، والردف العالي الصغير. كانت الخطوط البيضاء الرفيعة تشق طريقها عليه، وخطوط السنوات أيضًا. تُقلِّب وجهها بين يديها لتشاهده من كل زواياه. الأخاديد الصغيرة أسفل الجفون وفي زاوية فمها تناسب سنواتها الكثيرة. استقرت قليلاً إلى زاوية جانبية، ونظرت متأملة وجهها. وجه طويل بوجنتين عاليتين، وعينين صغيرتين كهِرَّة، وشـفتين كبيرتين قليلاً لكنهمـا ممتلئتان وجميلتان.

لم يتبـادلا حرفًـا في السـيارة. وهـو منتبه لهـا بالكامـل، أو للطريق. يحمل قَدرًا من وسـامةٍ تزداد بزيادة سـنواته، ووجه تشوبه سُمرة خفيفة. ما إن انتهيا من زحام المدينة وبدأ الطريق يتضح أمامهما، سألته عن عارضته الجديدة. نظر رمزي إلى الجهة الأخرى، أنزل وجهه أمام مرآة السيارة الجانبية وعدل من وضع خصلات شعره الرمادية الناعمة. لم يجِب على الفور. كان يتجنب إثارة الموضوع لأيام مضت، وأراحته هي بعدم سؤالها. لكن بعد

قُبلتها المصطنعة تلك عرف أن صمتها لن يدوم.

قال باقتضاب إنه اختبر أخرى، لكنه لم يخترها بعد لتكون العارضة الرئيسية في مجموعته القادمة. صمتت ثانية. كل منهما يحاول ألا يثير العاصفة الموسمية، التي تهيج كلما أوشك على إطلاق مجموعة أزياء جديدة. لكن كان عليه الاعتراف بينه وبين نفسه أن هذا الموسم هو الأهدأ منذ أن أبدى رغبته في استبدالها بعارضة رئيسية أخرى أصغر سنًا.

كانت تقود بسلاسة. الطريق واسعة وخالية إلا من بضع سيارات تختفي خلفها في مرآتها الأمامية. وبِرك مياه تلمع على الإسفلت في الأفق، لكنها لا تبلُغها أبدًا. فوق المقود أمامها، أعلى البوق، مُلصق مصغَّر للوحة "زهرات الصباح الذهبية". صغّرها خصوصًا لها صديقها الرسام. لصقتها قبل تحركها لتكون أيقونتها أثناء القيادة.

لوحة يمكنها توسُّط جدران ردهة كبيرة بمفردها، تعود لمنتصف القرن التاسع عشر. في مركزها سيدة جميلة، تشبهها حد التطابق. تجلس في غنج رافعة يديها قبالة وجنتيها، وشعرها مرفوع لأعلى، بجانبها زهرات تغمرها أشعة شمس جانبية. ورغم أن السيدة هي قلب اللوحة، لكن الرسام تجاهلها وأعطى اسمها للوردات.

تتبَّعت نجلاء السيدة الموديل في أكثر من لوحة لنفس الرسام. عرفت أنها كانت عشيقته. منحته روحها ليرسمها فوق كل شيء. قيل إنها من

أكثر السيدات اللواتي رُسمن. ثم انصرف عنها ليرسم غيرها بعد رواج لوحاته.

لكنها لم تستطع تتبع كل شيء، لم تعرف مثلاً عن نزهتهما الأخيرة في ذلك الصباح البعيد، قبل امتزاج الذهبي بالفضي. حين نهضت كريستينا، السيدة الموديل، من سريرها. كانت مدللة كسولًا. ابنة لأحد نبلاء ذلك العصر. عارية تمامًا، سارت في ردهة منزلها الصغير، حيث كان ألبير، الرسام، نائمًا فوق الأريكة في نهاية الردهة العريضة، مقرفصًا من شدة البرد. تفحَّصته كريستينا، نظرت إلى خصلات شعره الرمادية الناعمة، إلى ركبتيه المربعتين البارزتين. لم تسحب الغطاء فوقه، إنما رقدت هي بجسدها الدافئ بجانبه، واحتضنته بقوة لتدفئه. ناما كما لو أنه آخر يوم لهما على هذه الأريكة، في ذلك المنزل، في تلك الحياة.

حين استيقظا، ملأت هي حوض الاستحمام الصغير الأنيق وغمرت جسدها به. حاول ألبير دعكها بالصابون، لكنها رفضت بهدوء، وطلبت منه ارتداء ملابسه للخروج.

سارا معًا على مهل، يتأبط ألبير ذراع كريستينا، ووهن ما أصاب جسده العجوز. لم يكن معها سوى حقيبتها الصغيرة وذراعه. طويلة، فارعة الطول، تكاد تلامس الشجيرات الصغيرة. أخبرته أنها تود التجوُّل في الغابة. تعجَّب لأنها لطالما خشيت الدخول إليها، لكنها طمأنته أنهما لن يكونا طعامًا للذئاب اليوم.

لكن نجلاء قرأت عن لقائهما الأول، عندما كان ألبير مشردًا على النواصي، ببضع لوحات متسخة بيده يعرضها للبيع أمام المارة. وكانت كريستينا أحدهم في ظهيرة هادئة، فوقفت لتنظر. دفعت له بعض النقود مقابل لوحة صغيرة، وقبل أن تمضي في طريقها، قال لها ألبير إنه يود أن يرسمها دون مقابل. لم تتردد وسألته متى، أجاب: الآن. فذهبا معًا إلى منزلها الصغير ولم يفترقا بعدها.

تضم الموسوعات اسمه، ألبير بوديل، أحد رسامي القرن التاسع عشر، مع صورة مُصغَّرة له. لم يُصوَّر سوى مرتين فقط في حياته، حيث رفض الجلوس أمام تلك الآلة العجيبة. ورفض تصوير كريستينا نهائيًا، وهددها بحرق اللوحات التي رسمها لها أمام الجميع، فتراجعت عن التجربة.

عرفت نجلاء أنهما لم ينجبا أي طفل، كما عرفت أن ميوله الجنسية تغيرت، لكنها كما الباحثين لم تعرف متى. ألبير نفسه لم يعرف متى اشتهى جاك، بُستاني حديقة كريستينا. كان قصيرًا ومفتول العضلات، راقبه ألبير وهو يجزّ العشب من حديقتها الصغيرة، يعمل في سرعة ويباعد ما بين فخذيه مقرفصًا فوق الأرض الخضراء. باغته ألبير دون كلام، اعتلاه وانتهى. لم يمانع جاك، ثبت ثم ارتدى بنطلونه، وأكمل عمله بسرعة كالمعتاد.

- هيا نرسم شيئًا جديدًا.

بدأ ألبير اقتراحه هكذا:

- هيا يا كريستينا، تشجَّعي واتركي مساحة من اللوحة لكائن حي آخر يشاركك بها.

لم تفهم كريستينا في البداية، رمقته ومضت في طريقها. لكنه لم يتأخر في التنفيذ، أحضر فتى صغيرًا وأمر الخدم بتنظيفه وألبسه أحد قمصانه. أجلسه بجوارها كأنهما حبيبان يروِّجان لإشاعة ما، يمضغان علكة القيل والقال. كان ألبير يعمل في سرعة، لأنه أدرك من نظرات كريستينا النارية أن الأمر لن ينجح إذا تباطأ.

لكن كريستينا لم تمنحه الوقت الكافي، إذ صفعت الفتى بقوة عندما لمحته يتحسس عضوه ويغمز لـ ألبير، وطردتهما من منزلها. عاد ألبير بالطبع بعد عدة أيام، لكنه رجع بشروط. "سأرسم ما ومن يحلو لي"، قالها بحسم الرجال، ليس لديه أي سلطة سوى أنه رجل. وانصاعت كريستينا كرهًا.

أمضت أيامها تراقبه من أعلى السلم الداخلي، وهو يرسم الفتيان الذين يحضرهم من الشارع للمنزل، لمنزلها. يرسمهم بتروٍ ويطيل النظر إليهم. يُخلِّد هؤلاء الحمقى كما لو أنه يسخر من تخليدها هي شخصيًا. كل صباح ينهمك ألبير في اغتسال طويل، يتأكد من نعومة ذقنه أمام مرآته. تتأمله أثناء استعراضه لفحولته، وتزداد شكوكها حول انتهائه منها للأبد. ورغم ذلك، أصبحت طقوسه اليومية جزءًا من حياتها، كأنه شاشة سينما وهي المشاهِدة القديمة الوفية التي التصقت بالمقعد، ولم تعد قادرة على المغادرة.

سنوات مضت ولا تزال، وخطوط الزمن تزحف على لوحاتها بالمرسم

قبل زحفها على ملامحها. كان يبيع لوحاته الجديدة، خصوصًا الموديل العاري. رفضت هي التعرّي في زمن آخر، قالت إنها ليست رخيصة. الآن تسير في المنزل عارية، وأصبح من المألوف أن تُرى دون ملابس في الردهة أو في النافذة. يمكنها سماع أصوات ضيوف ألبير المتهكّمة خلفها، لكنها لم تكترث. كانت تعرف أن ألبير يمنع أيهم من التعرُّض لها، وأن وجوده حماية لها من تهكمات أخرى أكبر وأكثر إحراجًا. في أعماقها، ألقت اللوم على نفسها، كما سيفعل الجميع. تقبّلت الألم بصدرها وأفسحت له الزمن.

لم يذكر التاريخ كل ذلك. لم يتوقف أمام آلام كريستينا وجموح ألبير. حين تتبعت نجلاء حياتهما لم تتوصل للكثير، لكنها كانت تعرف بطريقة ما ما مر به ومر بهما. كانت تشعر بأنها مركز تلك الدائرة الضيقة على اتساعها. وأن لديها هنا مساحة خاصة بها لم تختفِ باختفاء كريستينا وألبير. حيث تلاشيا معًا دون أثر، ولم يبقَ منهما سوى اللوحات التي حملت سعادتها بورشة عمل ألبير. لا يعرف أحد كيف أو أين تم الأمر، كما قرأت نجلاء جملة وحيدة مقتضبة في نهاية التحقيقات عنهما، "قتلته وانتحرت". خططت للأمر جيدًا وأخفت الجثتين في مأمن، ونجحت في إقصاء شذوذه عن جريمتها.

في الغابة، وعلى الطريق، أغلقت كل منهما الدائرة. اصطحبت الزوجتان ألبير ورمزي في نزهة أخيرة، ثم اتخذتا طريقين فرعيتين. سمعتا سؤالهما الأخير "إلى أين؟"، وقالتا بصوت هامس:

- سترى.

كيف الذهاب يا زيزي

بالأمس ماتت زيزي.

صنعت لي قالب الكيك الذي أحبه وقالت أنا زوجتك ولست خادمتك لتطلب الكيك بهذه الطريقة السخيفة، ثم دخلت في سريرها. في الحقيقة، أنا لم أطلب الكيك بطريقة صعبة، لم أطلبه من الأساس، لكنها عانت من بعض الهلوسات في أيامها الأخيرة. تناولتُ الكيك في الصباح، وصحت هي لتصب لنا الشاي باللبن وتزينه بنعناع جاف مفروك بعناية فوق الكوب. ذات مرة أخطأتْ ووضعتْ ملوخية جافة بدلاً من النعناع. شربتُ الشاي باللبـن حينها ولم أعترض، لكني أعرف أنها كانت غلطة مقصودة لتقيس ردّ فعلي وتحللها ثم تتشاجر.

لا أعـرف كيف ماتت زيزي تحديـدًا، لقد خرجتُ أنزِّه كلبها الصغير "جومـي"، كما أفعـل في كل صباح. كان واقفًا أمامـي وذيله يقظ يتحرك بنشاط خلفه، فأنهيت فطوري سريعًا قبل أن يبدأ وصلة النباح، وخرجنا معًا. حين عدنا لم تكن في الردهة، ظننتُ أنها في المطبخ مشـتبكة مع طعام

ما، لكن بعد قليل اكتشـفتُ أنها ليست هناك كذلك. وعندما نبح جومي كانت هي -على الأرجح- ميتة في الشرفة الداخلية في حجرة نومنا، وبيدها حزم البصل التي كانت تحفظها على الجدران.

بالطبع لم يكن اسمها زيزي، لكني لن أسجل اسمها لأنها لم تحبه أبدًا، ولا جـدوى من محاولة التخمين، لأنها لم تكن زينب ولا زينات ولا حتى زكية. وعلى شـاهد قبرها صممتُ على كتابـة زيزي، اعترض أخوها بأن عليها أن تقابل اللـه باسـم يليق بسـيدة تقيـة. لكني لم أتراجع، صلّبتُ ملامحي دون كلام، فانتهى النقاش على الفور.

لم أجد جومي في المنزل عند عودتي، بحثتُ عنه قليلاً ثم انسحبت في نوم عميـق فوق الكرسي الضخم في الردهة. جاءت زيزي كأنها ليس للموت وجود في عالمها، ألقت الغطاء فوق جسدي غاضبة. أكاد أسمعها بوضوح وهي تغمغم عن أن الكرسي ليس مكانًا مناسبًا للنوم، وعن موجات البرد الحـاد التي تزيد حين أنام في مكان بارد. لم أرد، كما أفعل في كل مرة، تجنبًا لسخطها.

حين صحوتُ ليلاً، كان الظلام ثقيلًا منسدلًا، وخيوط الضوء متوازية على الأرض عبر الشرفة. كانت زيزي تغني في المطبخ أغانيها الفرحة، تمط اللحن فتفسده وتنشز بصوت رفيع. ربتُّ على رأس جومي برفق ثم رفسته بقوة ليصرخ فتأتي مسرعة لتطمئن عليه. لكنها لم تحضر، ظلت تغني أغانٍ غير مناسبة لليل ثقيل مثل ذلك.

حين ماتت، تركتها على الأرض وشـغَلتُ الهاتف لعدة دقائق لأعلن رحيلها، لكن حين عدت كانت قد عادت للفراش ووضعت الأغطية فوق وجهها الطويل، كان أنفها أكثر شحوبًا عن ذي قبل، كورقة شجرة جافة على وشك السقوط. لم تتوقف عن ألاعيبها قط حتى في العالم الآخر.

في الصباح، كنت ما زلت على الكرسي الضخم، وكانت قدماي ممدودتين أمامـي خارجه، لأنه أقصر من طول سـاقيّ بعدة بوصـات. كان ظهري مشـدودًا، أكاد أمزق مفاصلي القديمة. متلحفًا بسـترتي الجلدية الزرقاء، جلستُ أنتظر. دخلت زيزي من الباب بصحبة جومي وبيدها طعام كلاب جاف. تذكرت أني نسـيت شراءه في آخر مـرة كنت بالخارج. لم أتكلم أو أعتذر، ولم تعقِّب هي كذلك. لكنها لم تقدم لي الغداء، بينما سمعت أنفاس الكلب فوق صحنه، أنفاس دافئة ولعق مستمر.

هدأتُ قليلاً وصممت على تجاهلها. لن تخدعيني بحيلك هذه يا زيزي. تداعى إلى ذهني حيلتها الأولى حين رأيتها لأول مرة. كانت منتصبة كرَبَّةٍ صغيرة فوق سلم خشبي يصلها بسطح منزلهم. تستعد لترفع قدمها اليسرى فوق السـطح بينما كانت اليمنى ما تزال فوق آخر السـلم. كانت ترتدي جونلـة طويلة لكني لم أرَ ما أسـفلها أبدًا. مالت برأسـها تجاهي ورأتني، كان شـعرُها طويلاً وراءها ومربوطًا بعنايـة، طويلًا حتى أنه تدلَّى ليصل إليّ بالأسفل، طويلًا حتى أني رغبت في تسلقه لأكون بجوارها.

لكنـي حين قابلتها مرة أخرى كان شـعرها قصيرًا، سـألتها عما رأيته فقالت: "كان بجانبي حصان، هذا شعره". صمتُّ حينها ولم أُعلِّق. بطريقة ما أعجبني الرد، تخيلت نفسي أتسلق ذيل حصان، فيرفسني ولا أقع؛ يرفسني ثانية، فنمتطيه معًا وأرتدفها وذراعاي حول بطنها المكور الصغير.

بهتت هذه الصورة بعد سنوات، وبقي شعور بالبله يصيبني كلما تذكرت. حين واجهتها أخيرًا بتلك الحكاية قالت إنها لا تعلم شيئًا عما أحكي، وإنهم لم يملكوا سـلمًا خشـبيًا يومًا في منزل أبيها. وهكذا كانت كل المناقشات تنتهي إلى لا شيء. أحدثها عن حصان فوق السـطح واقفًا بجانبها فتنكر وجود سـلم خشـبي. يمكن أن يكون معدنيًا يا زيـزي، يمكن أن يكون حجريًا يا حبيبتي، يمكن أن يكون أي شيء، لكنها قصة عن شعر الحصان الطويل وليس عن كل شيء آخر.

كانت تسعل بقوة قبل رحيلها، كأن الصدرَ يتهيأ لطرد الروح. مزجتُ العسـل بالليمـون وقدمته لها بالفراش، فقطرتـه بعينيها وقالت إن هكذا أفضل، فالعسـل ينظف العين والليمون يزيد من اتسـاعها. الغريب أنها توقفت عن السـعال بعدها. حـين ماتت أدركت أن حواسـها كانت قد انفتحت على بعضها، لأني رأيتها خلسـة تضع حبـة لوبيا صغيرة بأنفها. الآن فهمت كل شيء.

في الشارع، سرت بجانب محال بيع الكنفاه التي كانت تطرز لها أحيانًا.

أخبرتنـي قديمًا بأن لوحاتهـا تُباع على نحو جيد. لكنـي وجدت لوحاتها المطرزة على الأرفف بصناديق العرض. يا لك من مسكينة يا زيزي! أمضيتِ سـنواتك تطرزين بألوان غير متناسـقة لوحات الكنفاه المملة السخيفة، وتأملين أن ترى جدران سيدة سعيدة ولديها خادم يدهن قدميها بالفازلين كل مساء، فتنام وعيناها نصف مفتوحتين على لوحتك المعلقة على الجدار المقابل لفراشها.

ابتعـتُ كل لوحاتها، ملأتُ بها الأريكة وسـهرت ليلة كاملة أجردها مـن الأُطُر الذهبية العريضة. ثم راكمت الأقمشـة المطـرزة فوق بعضها بعناية، وطويت كل مجموعة على حدة، ثم ثبتُّها بخيوط سميكة. في المقابر، رشـوت الحارس ليتجاهلني. أمضيت أيامًا أذهب في الصباح وأعود إلى المنزل في المساء.

هناك كنت أحفر بإزميل صغير فتحة صغيرة أعلى شـاهد قبرها. كان الشـاهد كنافذة صغيرة مسدودة تمامًا بجانب رأسها. لقد أمرت أن تدفن هكذا، قدماها بالداخل ورأسها باتجاهنا، لعلها تحب الإنصات لمن يزورها، أو ربما ترغب في شم الورود التي يعلقونها فوق الشاهد تحية لها وترحمًا.

نجحـتُ في صنع فتحة صغيرة رفيعة بأعلى حرف الزين من اسـمها، وحتى الياء المنقوطة. انتظرتُ قليلاً حتى يتجدد الهواء بالداخل وحتى يتسلل النور، ثم أسقطت أول لفافة من الأقمشة. فكرت أن أصنع فتحة أخرى أسفل الشاهد، ربما تود الرد عليّ من خلالها. لكني تراجعت وعدت للبيت.

فوق الكرسي الضخم، وجدت لوحة مؤطرة بإطار خشبي رفيع. كانت إحدى اللوحات التي ألقيت لك بها. كانت لفتاة ترقص. راقصة يا زيزي؟! لا أتعجب لأخيكِ حين قال لا بد أن تقابلي الله باسم سيدة تقية. أنتِ لم ترقصي قط في حياتك، كنتِ تفضلين الغناء. اخترتِ دومًا أن تكوني المحرك الرئيسي لكل شيء، والغناء هو ما يتحكم بأجساد الراقصات. الآن رضختِ وأصبحتِ ترقصين يا زيزي.

استمر تبادل الرسائل بيننا نهارًا، ألقيت لها بلوحاتها وإبرة الكنفاه الطويلة وخيوط ملونة كثيرة، وخواتمها الفضية وطبق جومي، الذي لا أذكر إن كنت أمرت بدفنه معها أم لا. وفي الليل، كانت ترد على رسائلي، تحرق نباتات المنزل الواحدة تلو الأخرى، تُفجِّر الصنابير فوق الأحواض وتُغرِق السجاجيد، تفتح بابي للقطط وتغلق الشبابيك. تشاكسني كعادتها، وإن كنت أصبحت متأكدًا من أن للموتى مزاحًا ثقيل الظل ومزاجًا كئيبًا.

فوق الكرسي الضخم، أمام باب البيت، أتلحف بالسترة الجلدية الزرقاء، وجومي يلعق قدمي الناتئة. كانت زيزي تطوي الغسيل، تمسك قطعة الملابس وتطويها بعناية على حسب درجة حبها لها. يمكنني أن أرى مدى رضاها عما أرتديه من كيفية طيِّه، ومن الخطوط العشوائية المكرمشة فوقه ومن الطيات المتعرجة. كانت ترفض استخدام المكواة، فلا يكون أمامي إلا الامتناع عن ارتداء ما لا تحبه.

لكنها في هذه المرة كانت تلقي ما لم تستسيغه في حفرة ما بجانب قدميها، يخرج منها ألسنة نار طويلة ودخان أسود. سألتها عما تفعله، قالت إنها غسالة جديدة تعمل بالطاقة الشمسية. صمتُّ مرة أخرى وشعر حصانها المُدّعى يتطاير خلف رأسها العجوز.

في اليوم الأخير، ذهبت لقبرها ومعي دفترها الصغير، مدونًا به أسعار خيوطها الملونة وأسعار طعام جومي الجاف وأسعار خدع أخرى كثيرة لا أحد غيرها يستطيع فك طلاسمها. مسكتُ الدفتر ووضعته بحرص داخل الفتحة. كانت الفتحة رفيعة للغاية، بالكاد ضمت دفتيّ الدفتر. لم أفلته، إنما ظلت أصابعي متشبثة بطرفه من العالم الآخر. همستُ لها:

- خديني يا زيزي.

لكنها لم ترد، امتنعتْ منذ موتها عن الرد.

هل تومئين برأسك يا زيزي؟ أعرف أنك تقولين لا. لكنك لم تعودي في موضع اختيار. لقد فزت أنا بالجولة الأخيرة يا زيزي، وضيّعت أشياءك أسفل الكرسي الضخم وأغلقت أذنيّ دون غنائك السيئ، والتهمت غداء جومي الجاف في الليالي الرطبة المحملة بالعرق والتراب.

وحين تأتين مرة أخرى، يا غبية، احضري معك ورقة رُسم عليها، بخطوط كبيرة لأراها، طريق الذهاب. إن كنتِ لن تتحدثي لي ثانية فاكتبي، اكتبي بخط النسخ حتى أفهم. فمثلك لم يخلق ليكتب بالرقعة يا زيزي.

ما وراء الشجر

خلف شجرة عملاقة، وقفا متواريين، والحقيبة ما زالت على ظهره.

كانت شجرة استوائية وارفة، لم يعرفا اسمها وحين سألا، أجابهما رجل محلي بكلمات لم يستطيعا تذكرها أكثر من التفاتهما ناحيتها.

الشمس واضحة هنا، تبدو أقرب وأكثر سطوعا من أي مكان آخر قاما بزيارتـه في بلدهما. ومع ذلك يمكنهما النظر إليها دون عناء. ثبتت نظرها عليها وأمعنت النظر، للحظة ظنت أنها انطبعت داخل مقلتيها ولم يعد في وسعها رؤية شئ إلا من خلالها.

هز كتفها ببطء وهو يحثها عـلى التحرك. المكان مفتوح، يطل على كل شيء. شمس وشجر وهواء وبحر. لم تتدخل يد بشرية حتى ببناء حجري هنا أو هناك.

بالأمس لم يكترثا لبعض السـحب التـي تربصت بهما. تصورا أنهما قد يعودان كما ذهبا، بملابس جافة وشعر مثبت وأحذية نظيفة. أكثر ما حرصا

عليه هو عبوة رذاذ يصد البعوض ويبقيه بعيدًا. أغلب من بالقارب كانوا مسلحين بحقيبة كبيرة محشوة بمناشف في قعرها ومناشف في الطبقة الوسطى منها والمزيد من المناشف بالأعلى لحماية ما بأسفلها.

شعرا بقلق حين انتبها إلى أنهما لم يكترثا لهذه الاحتياطات. لكنهما في الصباح كانا قد تضاجعا مرة، وبعد الاستحمام تضاجعا مرة أخرى بحميمية أكثر، وتأخرا على ميعاد رحلتهما. فسحبا الأحذية والقبعات وانطلقا مرحين.

وفي الطريق، كانت تأوهاتها لا تزال تتردد في أذنيه، وتثيره. اختار أن يجلسا في مؤخرة عربة صغيرة لا تحمل إلا سبعة ركاب، حتى يستطيع تقبيلها وقتما يريد. احتضنها بهدوء، كأنما انزلقت يده دون قصد منه على ظهرها. ثم تسلل لثديها من تحت إبطها، نغزها نغزة فابتسمت دون حراك، اقترب ليقبلها كما خطط تماما، حين رأت نظرة السائق لهما في المرآة، صدته وأزاحت يده بسرعة. ضحك السائق وقال بإنجليزية هزيلة:

- honeymooners.. Ha?

ضحكا وأومأ هو برأسه سعيداً. غمز السائق بعينه بينما يتابع الطريق المترب الحلزوني بخبرة محنكة:

- No honeymoon in bus.. No honeymoon in street

التفت إليهما كل من بالعربة، دفست هي رأسها في الزجاج بخجل بينما

أراح هو ظهره للوراء في استرخاء، فاردا ذراعيه وغمز له بعينه. أصبحت كلماته قافية يلوكونها طوال اليوم كلما أرادا خطف لمسة أو احتكاك، تقلده هي تماما بإنجليزيته العرجاء وتغمز.

قبل الوصول إلى القـارب، على رصيف الميناء الصغير، كان المحليون هادئين، بينما ينظر أصحاب الجنسـيات الأخرى حولهم ويتبادلون النظر للسماء. لا تسعفهم لغاتهم المختلفة في التواصل. تضخمت السحب فوقهم واغمـق لونها. أصبح الأفق دخانيًا لا يـرون من خلاله حدود البحر من السماء.

على جانب المرفأ، وقف بعض الشباب المحلي ببنطلونات قصيرة كالحة وقبعات صغيرة من القش يسخرون من قلقهم. ضحكوا قليلا ويبدو أنهم أطلقوا النكات. لم يصمتوا إلا حين تحدث أحد البحارة إليهم.

أسـندت ظهرها على حجر ضخم، ونفخت دخان سـيجارتها صانعة سـحبًا خاصة بها. غابت قليلا، كان المشـهد مكررا مَعيشـا من قبل، هو وهي والأمواج تتكسر على أذنيها ودخان أرمَدَ الصورة في عقلها، فبهتت واختفت.

- كما لو كنا هنا من قبل!

ركبـا القارب مع المجموعة، تواريا عن الأعـين في المقدمة، بعيدًا عن

المحـرك والبحارة. لكنها لم تسـمح له بالاقتراب، وكررت جملة السـائق وضحكا.

لم تمطر يومها، تبدد كل القلق على وجوه السـائحين في رحلة العودة. وفـازا هما باللا مبـالاة التي حرصا عليها طوال الوقـت. كانا محط أنظار الجميـع منذ بداية اليـوم، تجاهُلهما للنظرات وتحـاشي الكلام جعل منهما نجمين مفضلين للبعض.

في الصباح، كانا يسـتعدان للرحلة الجديدة، جزيـرة أيضًا. قالت إنها ستحشو حقيبتها بالمناشف كذلك، ويكفي أنها تجاهلت القلق بالأمس. لم يعلق، كان يرغب في الالتحام بها قبل النزول، لكنها قضت الوقت بأكمله في الإعداد للرحلة.

نزلا لردهة الفندق، كان الجميع بلا حقائب، أخف وزنا وقلقا. تبادلا حمل الحقيبة والعرق يسيل على ظهريهما من قيظ النهار. لم يمنعهما حملها من تبادل النكات ولوك جملة السائق الخالدة.

الشمس دانية، يمكنها قطف أشعتها الذهبية بأطراف أصابعها. تكاد تلامس أنفها الطويل الأرستقراطي، سحبت قبعتها للأمام قليلا، ما اضطرها إلى رفع رأسها لترى الطريق.

في القارب، لم يستطيعا التسـلل للمقدمة لحجم الحقيبة الكبير. حمولة

زائدة، حرمته من الحب صباحا والآن تحدد تحركاتهما وتلامسهما. نظر إليها وأرفل جسده الفارغ بمفرده للمقدمة.

رسا القارب على الشاطئ وهما صامتان والحقيبة بينهما. أرادا تغيير ملابسهما ليرتديا ملابس البحر، قيل لهما إن لا مكان مغلق لتبديل الملابس هنا. مشطا المكان بأعينهما بحثا عن شجرة ضخمة ليتواريا وراءها.

كانت المجموعة بلباس البحر بالفعل ما عداهما. توجها للشجرة يجران الحقيبة التي أصبحت مزعجة جدًا عند هذه اللحظة. هناك خلف الشجرة العملاقة، وقفا متواريين، والحقيبة على ظهره. شجرة استوائية وارفة، لم يعرفا اسمها. خلع كل منهما ملابسه ليرتدي لباس البحر، لكنهما لم يقاوما، وفي ظل الشجرة تضاجعا.

كانت الحقيبة على بعد أمتار من الشجرة، حين نظرت إليها لتقدر المسافة التي عليها أن تسيرها عارية لتجلب ملابسها، رأت قماشها مرقّطًا. فزعت في البداية ظنا أن حيوانا صغيرا نائم فوقها، لكن حين أمعنت النظر وجدت إنها الحقيبة الداهية وأن البقع تزداد بوتيرة أسرع. حتى أصبحت كلها بقعة واحدة، مبللة بالكامل.

بدأت الأصوات تتضح أكثر، كُشف عنهما الغطاء الذي تمددوا أسفله حتى الثمالة. فسمعا صوت الماء يطرق الأرض بقوة بالقرب منهما، لكنها

لم تصـل إليهما بعد. كان ممددًا فوقهـا، لا يزال يلعق طرف أذنها لكنه رفع رأسه قليلا حين رأى الحقيبة. ثم نهض متباطئا في محاولة للاستيعاب. بيده ورقـة وارفة يغطي بها عضوًا منتصبًا، وهي وراءه مخبأة عضوها ونهديها، رمقا المجموعة تجري في كل مكان في محاولة للاختباء.

كان سيلا منهمرا أغرق الجميع. حتى إنها اضطربت، لم تعد تعرف من أين يأتي الماء تحديدا، أمن الأرض أم من السـماء أم إنه رذاذ الأمواج التي علت كهضاب صغيرة؟ الألوان باهتة طارت مع الرياح، والأشجار مالت عكس اتجاه البحر. لم تمطر تحت الشجرة، لم يصبهما أي بلل، لكن المناشف داخل الحقيبة غرقت تماما. جرفها السيل في اتجاه لم يستطيعا تحديده، مخلفة وراءها شعورا طاغيا بالسلام الداخلي لفقدانها.

عاريان، سألا مرة أخرى أحد المحليين عن اسم الشجرة، تفوه بإنجليزية متكسرة:

- شجرة الحب.

الدفتر الأزرق

- لا تقلق، الرجل لديه مشكلة وسنحلها.

قالها حامد لـ مجدي في وسط الزحام، وهو يضع كوب شاي على الأوراق أمامه. كان الشاي باردًا قليلاً وأخف مما قد يعدل مزاجه، إلا أنه كان نفحة صباحية لا بأس بها في يوم مضطرب كهذا.

كانت طاقة مجدي منسحبة بالكامل، لا يعرف كيف يواجه هذه المشكلة. يسحب الملف من اليد الممدودة من الفتحة الصغيرة بالشباك أمامه، ثم يضع الأختام والدمغات بآلية محفوظة. كان كوب الشاي بمثابة وقت مستقطع قصير، فرشف رشفة قصيرة، ثم تجرع الباقي مرة واحدة، متجاهلاً اليد الممدودة التالية وصاحبها المتعرق. حينها تذكر يد الشرطي وهو يسجل رقم سيارته هذا الصباح في دفتره. استلم الملف التالي أخيرًا وقد انتقل ذهنه للتفكير في حامد.

تشاركا هو وحامد هذا المكتب بالهيئة الحكومية معًا لسنوات، بجانبهما كرسي ثالث، لكن صاحبه متغيِّب دائمًا، فلم يعودا يشركان صاحبه في أي

شيء. مكتبهما في حجرة مستطيلة، يجلسان وراء شبابيك يستقبلان جمهورًا يحتاج إلى خَتم أوراق بأختام النظام الرسمية. المكتب الرخامي السميك بطول الشبابيك هو مكتبهما، تتراص الكراسي بمحاذاته والأوراق والدمغات والأختام والأموال على سطحه. الرخام أمام مجدي عليه بقع سوداء، والنُقر الصغيرة المنتشرة فوقه تقعَّرت، حتى أن مجدي يغرس قلمه الجاف في إحداها أحيانًا. بينما اللمبات النيون الطويلة تتراقص فوق رأسيهما.

مضى الوقت ثقيلاً، ولم يعد مجدي يرى، من فوق كرسيه، النهار الداخل من بوابة الحجرة المربعة.

تزايدت أعداد الأيـدي الممدودة بالأوراق، المنتظرة لحظة كبس الحبر الأزرق فوقهـا. والمروحـة بجواره تدور بيأس بلا أي طراوة. بدأ ينسـى الحظ السيئ الذي اجتاحه هـذا الصباح، الماء المنقطـع وخرطوم الماء في الحديقة الذي غسـل به وجهه، والشرطي الذي دوَّن رقم سيارته في دفتر أزرق لأنه ركنها في المكان الخطأ، والمثانة التي أفرغها في حمام الهيئة. ذهبت عنه مرارة الاضطراب قليلاً وراء مرارة كوب الشـاي الثاني الذي يطوي الوقت برشفه.

أشار حامد له بأن الوقت قد حان، فأغلقا الشباك وتركا الجماهير الغاضبة بلا اكتراث، وخرجا مُسرعَين نحو حمام الهيئة. دس حامد لفافة صغيرة بيد مجدى وقال بسرعة إن عامل البوفيه أخبره عن مشكلة تواجه الشرطي. كانت الخطة،

أن يذهب مجدي إلى المرحاض ويغلق الباب، بعدها سيدخل الشرطي الذي لا يحب أن يشاركه أحد الحمام، لذلك يتجنب الجميع الذهاب بينما هو هناك. عامل البوفيه يعمل حارسًا له، رشاه حامد ليلخص له الموقف، وأخبره بأن الشرطي في طريقه لباب الهيئة الآن.

سيدخل حامد بعد الشرطي متظاهرًا أنه لا يعرف أنه بالداخل. بعدها بدقيقة سيخرج مجدي من المرحاض ومعه هذا الدهان ويعرضه عليهما ليساعدهما على التبول. أكد حامد عليه "دقيقة واحدة وتخرج، لأنه سيطردني.. مفهوم؟"

كان اضطراب مجدي يزيد كلما اقتربا من باب الحمام. شعر بأنها ليست خطة تافهة هكذا كما يشرحها حامد، لم يكن الأمر بهذه البساطة قط. إنه شرطي ويمكنه فعل أي شيء ليؤذيهما. لكنه في نفس الوقت حاول تهدئة ضربات قلبه وتذكير نفسه بأنه ليس إلا رجلا مريضا لا يتبول وسيتعلق في أي شيء قد يلوِّح له بالأمل في العلاج. فكر أن يومه على وشك البدء حالاً، وأن المشكلة انتهت وسوف يعود ليتجرع كوب شاي آخر ويتسلم الملفات من الأيادي الممدودة دون إزعاج.

دخل مجدي مسرعًا للمرحاض الداخلي وأغلق الباب وراءه. بينما وقف حامد ينتظر دخول الشرطي من بعيد. ثم تبعه بعدها بدقائق قليلة. كان الحمام خاليًا إلا من الشرطي. قصير كقزم محني الظهر قليلاً، هيئته

مربعة لا تليق برأسه الصغير، وقف أمام مبولة في وضع استعداد لإفراغ مثانته، ودفتره الأزرق أسفل ذراعه اليمنى. لف برأسه قليلاً ليرى شريكه الطارئ، فلمح حامد عضلات رقبته تشتد، وبدت الأخاديد على جانب وجهه أعمق مما تصورها. كان ضوء الشمس المتسلل من النافذة العالية يتكسر فوق ملامحه ولا ينفذ لتجاعيده، فظهرت أغمق لونًا. لم يكن يرى الشرطي كثيرًا في رحلة ذهابه ومجيئه للعمل، لذلك لم يركز قط في هيئته. مرت نظرته في ثوانٍ قليلة لكنها كانت مجتزأة من كوابيس حامد.

رجل في الظلام في زقاق ضيق، لا يظهر منه سوى وجه، ملامحه ساكنة كالموت، وتجاعيده سوداء متحركة كديدان صغيرة تلعقه. تسمَّر مكانه حتى بعد أن أعاد الشرطي رقبته لوضعها، كان موقفًا ثقيلاً وود لو لفَّ وعاد خارجًا من الباب دون كلام، لكنه تذكر مجدي المنتظِر خلف باب الحمّام، فتوجه للمبولة ووقف بجانب الشرطي العجوز. لم يخرج عضوه بالكامل، فقط رأسه، ووقف متظاهرًا بالانتظار مثله. طال وقوفهما دون إطلاق ما يَودَّان إطلاقه. وحين همَّ الشرطي بإنهاء وقفته، قال حامد بابتسامة حذرة مرتعشة "وضع سيئ، ها؟"

لم يجِب الشرطي، إنما نظر إليه بجانب عينيه ثم عدل وضعه ليُخبئ عضوه المنكمش. كان حامد يشعر بالنظرة الجانبية منذ وقوفه بجانبه، كانت عيناه زجاجيتين، خاليتين من أي تعبيرات، خشى مبادلته النظر كيلا يتحوَّل إلى

رماد ويتطاير. لم يظهر مجدي ولم يسمع له حامد أي صوت وراء الباب المغلق، وغرق في عرقه ولم يعد يعرف ماذا يفعل بعضو بين يدٍ.

أما مجدي فجمد وقفته خلف الباب المغلق وتعرقت يده بغزارة. كان مرحاضًا صغيرًا، منفذه عالٍ يعلوه طبقات من الأتربة، به لمبة صفراء يتلاعب ضوؤها بخياله على الحائط، تقترب قاعدة المرحاض من بابه لدرجة لا تسمح لـ مجدي أن يقف بمواجهة عنكبوت متحفز فوق الباب. كان عنكبوتًا ضخمًا، أكبر من أي حشرة رآها مجدي يومًا، برأس صغير، وكذلك ما بدا له أنهما يداه، أما أقدامه الخلفية فطويلة بشكل لافت. ورغم تشوهه الواضح لكنه استطاع غزل منزل رحب به صيد يكفيه لأيام، في الزاوية وراء الباب.

مرت الدقائق ثقيلة وصار الأمر أكثر إرباكًا لـ حامد الواقف بجانب الشرطي، كان الخوف يعتصره تمامًا حتى أنه تقطَّر عرقًا. فكر أن يعتذر ويمضي من أمام المبولة. كل ما استطاع معرفته عن الشرطي يدل على أنه رجل سريع الغضب، يمارس الإيذاء أسرع وأسهل من تبوله. وحين لم يظهر مجدي، بدأ يشعر بأنه في خطر، وأنه لن يأمن جانب الشرطي بعد الآن، كل أمله يتلخص في ظهور الدهان وخروج مجدي من وراء الباب.

بنظرة خاطفة رأى أن الألم قد اعتلى وجه الشرطي تمامًا. لم يبدُ مكترثًا لوجوده، ممسكًا بعضوه من أعلى كأنه ينضح ماءً على حديقة، ويحاول

إعطاء الأوامر لجسده ليستجيب له ويخلصه من الانتظار الموجع. قرر حامد الانسحاب بهدوء تاركًا إياه مع تأمله الطويل. طرأت له فكرة أن يطرق الباب على مجدي، لكنه تراجع كيلا تنكشف الخطة. وفي ذهنه يؤكد لنفسه أن الشرطي لم ينظر إليه مليًا ولم يوجه نظره له بشكل كامل، بالطبع لن يمكنه التعرف إليه إذا مر أمامه غدًا.

عاد حامد لمكتبه وطال تفكيره في المسألة وهو يستقبل الأوراق من الأيدي الممدودة، بينما ينظر لكرسي مجدي الخالي في قلق. لكنه لم يجرؤ على العودة للحمام مرة أخرى.

ظل مجدي بصحبة العنكبوت وراء الباب، يشغل ذهنه بخيالات استئناسه وتدريبه على صيد الدفتر الأزرق ضمن شباكه، ثم التهامه وتخليصه من دين المخالفة الذي لن يقدر عليه. كان العنكبوت يبادله النظر، يرى بأعينه الكثيرة انفعالات مختلفة فوق وجه مجدي، ويحاول قراءة رجفته واصفرار وجهه، كما كان في إمكانه عدّ ضربات قلبه السريعة. كانت رائحة الأدرينالين تملأ المكان وتعبق أنف العنكبوت.

تراجع مجدي للخلف قليلاً ببطء شديد. في تلك اللحظة كره طوله الفارع، ودّ لو كان قصيرًا، قصيرًا للغاية، أقصر من قزم، في مساواة عِقلة الإصبع ليستطيع خلع حذائه سريعًا ودهس العنكبوت بغتة. أخذ يحسب المسافة بينه وبين الباب إذا ما رفع إحدى قدميه لخلع الحذاء، لكنه فشل في تذكر الأرقام وشعر بأن قدمه لا تستجيب له. من أين أتى ذلك الوحش

الصغير؟ لقد كان هنا صباحًا ولم ير شـيئًا منه، لكنه تذكر أنه لا يسـتخدم هنا سوى المبولة ويتقزز من الرائحة النتنة بداخل تلك المراحيض المغلقة. كانت الرائحة قوية حتى كادت تلتصق به. لو فقط يسـتطيع اسـتخدامها لتكون حائلاً بينه وبين العنكبوت.

حـرك العنكبوت قدميه قليلاً، فكاد مجدي أن يصرخ، لكن فمه انفتح مرتعبًا ولم يطلق أي صوت. اسـتمر العنكبـوت في حركته المتمهلة وكأنه ينتظر فريسته لتقع، بينما انكمش مجدي داخل ملابسه وسرت برودة قاسية فـوق عظام ظهره. ظل يتقلص كلـما زاد العنكبوت في تحفزه، حتى صغر تمامًا ووصل لأرضيـة الحمام، فقفز العنكبوت فوقـه ولفه داخل خيوطه الناعمة المطاطة، وصعد به ليضيفه لغدائه وراء الباب.

حين دخل حامد الحمّام عقب انتهاء اليوم باحثًا عن مجدي، لم يجد سوى لفافة الدهان ملقاة على الأرض في إهمال.

إله السينما الصيفية

كانا قد عادا لتوهما من رحلة للمدينة، سعد وأبوه. كان سعد مرتديًا سترة بنية كالحة بالكاد غلَّفت قميصه وساعدت في تدفئته في ليل خريفي بارد. كانت زيارة قصيرة تأرجح فيها الصغير فوق السلم المتحرك بالمبنى التجاري الجديد الذي عمل أبوه في السينما الصيفية أعلاه. صعد ونزل عدة مرات على السلم المتحرك، وتدرب على التوقيت المناسب الذي يدفع فيه جسده خارج السلم دون تعثُّر. وحين بدأ عرض الفيلم، أجلسه أبوه على كرسي خالٍ في الصف الأخير، رغم أن الكراسي أمامه كانت خالية أيضًا إلا من بعض الوحيدين.

عين على الشاشة وعين على أبيه، فيما كان أبوه يصول ويجول في الأرجاء، يبيع الفشار واللب الأبيض والأسمر. أحل ظل أبيه محل الفيلم. رآه أعلى الشاشة الضخمة، برأس عارٍ منتصب نحو السماء. يلقي بتساليه على المشاهدين برفق، كل صف على حدة. وبعد انتهائه، يمسك بيديه خيوطًا طويلة غير مرئية، ويبدأ في تحريك الممثلين. يخلع عن هذه ملابسها ويسمح

للشـاب أمامها بتقبيلها. يصنع مشـاهد الضرب والحركة، يُحرِّك الخيوط بعنف فتصطدم السـيارات بعضها ببعض وصوت الارتطام يخرق أذنيه. كان إلهًا للسينما، طويلاً، رفيعًا، أصلع، استبدل شعره بخيوط التحريك، يمكنه قضم قطعة سحاب بين أسنانه ونفثها فوق رؤوسهم، فتخرج ناعمة رقيقة كدخان يفصلهم عن تيارات الهواء الباردة.

حدث الأمر بغتة بعد عودتهما للبيت، لم يكن يدرك أن أمرًا كهذا يمكن حدوثه. لكنه أحس بأن العالم يُحدِّثه، يعطي له الإشارات ويحثه على الفهم والاستجابة. حين طردت أمُه أباه وألقت بملابسه من شباك حجرتها، سهر سـعد ليلته. لم يتخيل أباه يخطو لمحطة القطار، ولم يره جالسًـا على كرسيه كالمسـافرين، بل كان موقنًا بأنه حلَّق حتى حل على شاشته ومارس دوره اليومي كما اعتاد.

ليلتها، سمع تخميشًا على زجاج نافذة حجرته القريبة من الأرض، قبل أن يمد النور رقعته. التصق أكثر بفِراشه كقراضة توجسًا وقلقًا. دفعت يد ما مصراع النافذة وألقت ورقة كبيرة مطوية في عجالة. أسرع سعد ليلتقطها، ثم فتح النافذة مبتسمًا لصاحبها، لكنه كان قد اختفى. لم يعرف قط إذا كان أبوه من ألقاها أم أنه شخص أوصاه بأن يفعل. لكن أيًا كان من فعلها، فلا بد أنه كان سريع الحركة، شخص لا يخطو، إنما يطير.

استدعى سعد تلك الأحداث بعد سنوات بلغت العشر، كما هي بالترتيب نفسه، كأنها طازجة تلمع في ذاكرته. افترش الحقل وأشعل سيجارة، وترك الذكرى تنساب أمام عينيه، بينما جسد أمه الميت ينتظره في الكفن على طاولة الغُسل بالبيت. لم يُرِد رؤيتها، اكتفى بمعرفة أن جسدها الهزيل مهزومٌ هناك، ومتحررٌ أخيرًا من غضب لم تعرف كيف تصرفه، فأمطرته فوق رأسه كسهام مشتعلة.

كان يراقبها أثناء بحثها عن أبيه. يرى الغضب يمتد ويتوغل أكثر في روحها يومًا بعد يوم. خيط طويل كحنق غليظ التف حول عنقها القصير، حتى خنقها خنقًا ولفّ جسدها الأحمق. وفي كل مرات فشلها تموء بإحباط وتتكور في فراشها وتجر سعد للهاوية معها. ورغم سخطه لكنه كان يعدّ طعامها بنفسه حين تتوقف تمامًا عن تناوله. يجلس في المطبخ يتنسَّم الروائح الشهية لأكلاته البدائية، محاولاً تشتيت توبيخ أمه له المتناثر في ذرات الهواء.

هرب منها دومًا للحقول الواسعة. هناك، مع صبية آخرين هاربين، عبث بأعضائه ودخن السجائر وألقى النكات القبيحة، وأقسم على المغادرة والبحث عن أبيه فوق شاشات السينما بالمدينة. لكنه لم يجد مهربًا من مسؤولية ما خفية نحوها، كان يعزي نفسه بمحاكاة الأفلام التي رآها مع أبيه. يجمع الصبية ويجلسهم في صفوف بالحقول المجاورة. يحكي لهم قصة الفيلم

ويختار منهم من يمثلون معه الأحداث، ويقضون نهارهم يحفظون الجُمل ويعيدون تمثيل المشاهد واللقطات. لم يكن في بلدتهم قاعة سينما، وبعض الصبية لم يروا الشاشة الضخمة قط. فأصبح سعد أكثر لمعانًا بينهم، يسير فيتبعونه مأخوذين بسحر حكاياته وأفلامه.

تأجَّل رحيل أمه عامًا بعد عام، والورقة المطوية في عجالة ما زالت بحوزته. يربت عليها كلما تفقدها، والبريق المنعكس من ضوء الشاشة فوق صلعة أبيه يداعبه.

بعد عودته من مراسم الدفن، كانت الأمور مبهمة. لم يتضح شيء بعد واستمر الالتباس يخيم عليه. ملابس أبيه المتطايرة من الشباك، عويل أمه، ورقة مطوية في عجالة، شاشة ضخمة تلامس السحاب، طعام بدائي فوق الوسائد، توبيخ متواصل يملأ رئتيه، حكايات تركها على النواصي وبين الحقول، خمش أظافر على زجاج، ورؤى ضبابية رآها في ليلته الطويلة الأولى له بعد رحيلها.

نهض وابتعد عن فراشه، توجه للحمام ليستحم وينفض آثار الكوابيس عن عقله. وكالمعتاد تأنَّى وترك غطاء الوعاء الكبير يتقافز أمام عينيه، بينما تتسارع الأبخرة في أسفله. كان هو أيضًا أسفل الغطاء، يجاهد ليخرج.

ملأ البانيو الصغير بالماء البارد، ثم أطفأ نار الموقد ونقل الوعاء بجانبه. وبعد خلط المياه الساخنة بالباردة، خلع ملابسه بسرعة واندس في الماء. مدّ جسده أمامه وغمر رأسه تمامًا، كأنه دُفن بصحبتها، كأنه لم يترك القبر الذي وضعها فيه. أغمض عينيه ورآها، امرأة سمراء قصيرة صارمة، حِدتها ظاهرة على محياها، تبتكر له العقاب تلو الآخر، لم يتذكر قط ذنبه، لكن العقاب لم يلبث أن طارده كل هذه السنوات.

يتذكر وقفته، طفلاً، وحيدًا خائفًا، يغتسل بمفرده بين جدران هذا الحمام المتهالك. مندسًا بين جوانب البانيو الصغير وقد أغراه الماء الساخن وأشعل أعصابه. وبينما قطعة الليف تزحف فوق جسده مارًّا بصدره نزولاً إلى البطن ثم أسفله، دخلت أمه بغتة وصفعته على ظهره بقوة، ظنًّا منها أنه يعبث بعضوه؛ ضم فخذيه لصدره خشية قرصة مفاجئة. استمرت بالصفع قائلة بغضب "ما صدقت بقيت عريان لوحدك يا ولا؟ إنت عارف اللي بيلعب في بلبله ربنا بيعمل فيه إيه؟". لم يعرف قط الإجابة، وأصبح أكثر حرصًا في مراته المقبلة. حين فتح عينيه رأى البخار يتصاعد من حوله حتى السقف، مُكوِّنًا فقاقيع ماء صغيرة متجاورة تستعد للهطول مرة أخرى، لتصبح برك ماء ضحلة فوق البلاط الإسمنتي. وقد تلاشت ملامح أمه من أمامه وكذلك الغضب.

كان قد نوى المغادرة منذ أسابيع قليلة. لكنه لم يعرف هل عليه إخبارها أم يتركها هكذا ويمضي. سكنت تساؤلاته برحيلها المفاجئ. أخبر الجميع بالمدافن أنه لن يتلقَّى أي عزاء بعد الدفن، وصمَّ أذنه عن الأسئلة والاقتراحات، تغلف بحزن رفيع ليبتعد عنهم ويتخلص من عبء الواجب.

وبعد انتهاء الماء الساخن من الوعاء، ارتدى ملابسه بسرعة حتى لا يتسلل البرد لعظامه الصُغيرة. كان قد انتهى من إعداد حقيبة وحيدة بها ما يصلح للمدينة، وتأكد مرة أخرى أنه لم ينسَ الورقة الكبيرة المطوية في عجالة. ورقة كان بوسعها إراحة أمه، لأن أباه كتب فيها عنوانه تفصيليًا، ولم يخبرها سعد قط بأمرها. "لم تستحقها" همس لنفسه بلهجة قاطعة ليغلق كل نوافذ العواطف التي تريد الحياة.

وهناك، بالمدينة، لما لم يجد أباه في العنوان، ذهب للمول الذي لم يعد جديدًا وتعطل سلمه الكهربائي للأبد. توجه لصالة السينما الصيفية التي لا تغلق أبوابها حتى في الشتاء. اعتلى الشاشة الضخمة، وفي المنتصف انتصب واقفًا وألقى تساليه التي ابتاعها قبل صعوده. ألقى حبَّات اللب والسوداني المقشر والفشار، وهو يرى الجميع يركض في اتجاهات مختلفة، حشود صغيرة مسرعة كالنمل. نثر خيوطه الطويلة غير المرئية ليتحكَّم بالمكان. وترك الممثلين أحرارًا ليرتجلوا نصًا خاصًا بهم، لأول مرة، استطاع

إعـادة النظام وإخماد الفوضى. أدرك أن ذلك إرثه الذي طالما انتظره، وأن أباه حلّق بعيدًا، بينما بريق صلعته لا يزال يعكس الضوء وينير المكان.

ماذا حدث منذ قليل؟

- أنت مبتل!

شهقت المرأة، ونظر إليها زوجها ببلاهة ثم تحسس معطفه:

- نعم، لقد أمطرت منذ قليل.

- أين أمطرت تحديدًا؟

- هناك، في الشارع المقابل- وأشار في اتجاه الجنوب مرتبكا.

- لا، لم تمطر هناك!

- وما أدراكِ؟

ثم سحبته من يده:

- تعال معي لتريني المطر.

سار الرجل بجانب المرأة، لا يحاول أبدًا تخطيها. كانت غاضبة تسير كعاصفة، ومعطفها يتطاير حول جسدها الضخم. وصلا للشارع المقابل

حيث أكدّ زوجها حدوث المطر، وقالت:

- أين المطر الآن؟

- أمطرت هنا منذ قليل، قبل أن آتي إليك!

بدون كلمة، وبخدين مشتعلين من شدة الانفعال، رفعت حقيبتها وضربته فوق رأسه، وسارت مبتعدة وهي تسبه بكل الألفاظ التي تعرفها.

وقف الرجل وحيدًا ينظر حوله. تحسس معطفه عدة مرات في حيرة، ثم سار بمحاذاة المباني القديمة ووقف يتحسس معطفه مرة أخرى. في الظلام، لمح ضوءًا برتقاليًا دائريًا، يتحرك بمفرده في الهواء. اقترب أكثر ليرى، فكانت سيجارة مشتعلة بيد رجل.

- مساء الخير.

قال لرجل السيجارة وهو يثبّت ياقة معطفه حول رأسه. لا يرى من رجل السيجارة سوى كفٍّ، لكنه سمع حشرجة نابعة من حلقه تبعها سؤاله:

- هل تشعر بالبرد؟

- قليلًا، لقد أمطرت السماء هنا وبللتني تمامًا.

نهض رجل السيجارة واقترب منه ليتفحصه:

- بجد؟

- ماذا؟

- هل أمطرت هنا منذ قليل؟

- نعم، أعتقد ذلك. ألم تر المطر؟

سحب رجل السيجارة نفسًا عميقا من سيجارته ثم نفث الدخان في الهواء:

- أنا أيضا معطفي مبلل، لكن لم أر مطرا هنا!

- إذن ماذا تعتقد؟

هرش رجل السيجارة رأسه:

- لا أعرف، لم أفكر في هذا.. لماذا يشغلك هذا الأمر؟

- رأتني زوجتي مبللا وحين أخبرتها بأمر المطر غضبت وضربتني على رأسي بحقيبتها

- لماذا تخبرها بالحقيقة؟

أطرق الرجل خجلا:

- قلت لك، لقد ضربتني.. إنها امرأة كثيرة السباب.

ضحك رجل السيجارة:

- يا لك من أحمق! أنا أحب المرأة كثيرة السباب.

وسحب نفسا آخر من سيجارته، وأضاف:

- إنها لم تمطر هنا، أنا أعرف مصدر البلل.

نظر إليه الرجل متسائلا، فيما مشي رجل السيجارة خطوات قليلة للأمام وأمره بأن يتبعه. صعدا معًا أحد المباني المجاورة، ثم توقفا أمام باب خشبي متهالك. طرق رجل السيجارة الباب، ففتحت امرأة أربعينية بعد وهلة، بوجه نصف نائم وشعر منكوش. اعتذر رجل السيجارة للازعاج:

- نحن مبللان بالكامل، ونود أن نعرف هل ألقيتِ ماء غسيلك بالشارع منذ قليل؟

صفقت المرأة الباب بعنف، فتبادل الرجلان النظرات الحائرة، وعلق الرجل الأول:

- كما لو أننا لصان!

قبل أن يستديرا لينزلا الدرج، سمعا صوت المرأة تزعق في شخص ما ثم صوت ارتطام شيء صلب بالأرض، قال رجل السيجارة:

- يبدو ككرة خشبية.

- انتظر، ما الكرة الخشبية؟

- لا أعرف، لكن صوت الارتطام يشبهها.

- لكن كيف تعرف أن الصوت يشبهها إن كنت لا تعرفها؟

فُتِح الباب ثانيةً، وأطل منه رجل نحيف. نظر إليهما ونظرا إليه:

- كيف أساعدكما؟

جاء صوت المرأة الغاضب من الداخل تصيح:

- ألم آمرك ألا ترمي ماء الغسيل بالشارع مرارا، بل وتجلب لي هؤلاء الخثالة هنا لباب بيتي؟

وتبعهـا صوت ارتطام آخر، هذه المرة كان طبقا خزفيا بالتأكيد. تحرج الرجل ونظر إليهما مبتسما:

- معذرة، إنها تتحدث أثناء نومها، أنا لم ألق أي ماء بالشارع

ورد رجل السيجارة بينما يستدير لينزل:

- لا عليك، بالتأكيد لقد أمطرت بالأسفل، سننزل لنستطلع الأمر.

غاب الرجل ثانية بالداخل وخرج مسرعا بصحبة معطفه وأغلق الباب وراءه وقال نازلا:

- حقا؟ هل أمطرت الليلة؟ دعوني أستطلع الأمر معكما.

وقف ثلاثتهم بالشارع. رجل السـيجارة بينهما، لا يبدو أن سيجارته ستنتهي قريبا. قال الرجل الأول:

- هكذا تأكدنا أنها أمطرت بالفعل.

- لا لم نتأكـد بعد، الأرض جافة تماما ونحـن مبللان. لا بد أن هناك سببا لذلك- قال رجل السيجارة ونظر للرجل النحيف وأضاف:

- هل ألقيت ماء غسيلك؟

- لا لم أفعل، لماذا قصدت شقتنا نحن بالذات؟

- لأني أرى زوجتك دائما تفعل ذلك.

- لا أظـن، لا بـد أنك مخطئ، حتى انظر لشـباكنا بالأعلى، هل به أي غسيل على أحباله؟

نظر الرجل الأول ورجل السيجارة لأعلى لكن الظلام حال دون الرؤية الواضحة، واختلطت الشبابيك ببعضها. سأله الرجل الأول:

- أين شباكك تحديدا؟

أشار الرجل النحيف بيده لأعلى:

- الأزرق المقشر من الجنب، ثالث شباك يمين.

تذمر الرجل الأول:

- وهل سأرى أزرق مقشر في ليلة حالكة كهذه!

قاطعهما رجل السيجارة:

- إذن، أنت لم تلق الماء من شباكك.

وقف الرجل النحيف أمامهما ورفع يديه اليمنى لأعلى فوق رأسه، ثم نزلها قليلا، لتبقى راحة يده بجانب رأسه، وقال بأداء مسرحي:

- أقسم لكما أني لم ألق أي ماء من الشباك، ولم يكن لدينا غسيل في حمامنا أصلا.

حل الصمت، ونظر إليه الرجلان حتى قال رجل السيجارة:

- ونحن نصدقك.

- لماذا تقول نحن؟

- لأن علينا تصديقه!

- لو كانت زوجتي هنا لم تكن لتصدقه.

- نحمد الله أنها ليست هنا إذن.

نظر الرجل الأول للسماء وتنهد:

- لقد أمطرت هنا منذ قليل.

في هذه اللحظة، سحب رجل السيجارة نفسًا قصيرًا:

- اسمع يا رجل، ما تقوله شيء مريب. لا يمكن أن تظهر هكذا فجأة لتقنعني بأن السماء أمطرت بينما لم تمطر!

- لكنك مبتل تماما مثلي، ألديك تفسير آخر؟

- لا ليس لديّ، لكنه غريب أن تمطر دون رؤية المطر.

- دعونا نسأل الله، قاطعهما الرجل النحيف ويده في جيب معطفه.

نظرا إليه بدهشة، وقال الرجل الأول بلا اكتراث:

- لن يجيبنا.

سأله الرجل النحيف:

- لماذا؟

- لم يجيبني حين سألته عن مرض ابني.

صمتوا ثانية وسحب رجل السيجارة نفسا من سيجارته. لا يتحدث سوى بعدّ النفس، كأنه يسحب الكلمات منها وليس دخانا، لذلك فكر الرجل الأول أنها ملهمته.

- مرض ابنك يتطلب الكثير من الشرح لكن أمر المطر بسيط.

وجّه الرجل ذو السيجارة سؤاله للرجل النحيف:

- هل تعرف كيف نسأله؟

هزّ الأخير رأسه نافيا:

- لم يحدث أن سألته عن شئ من قبل.

سأله الرجل الأول:

- ألا تصلي؟

- ما علاقة الصلاة بالسؤال؟ أيجيبك إلاهك عن شيء أثناء الصلاة؟

فكّر الرجل الأول قليلًا وهز رأسه نافيا، فيما قال رجل السيجارة:

- أنت تقول إنها أمطرت، وأنت تقول إنك لم تلق أي ماء من الشباك. وأنا لا أثق بكما، دعونا نذهب لرجل السقف.

سأل الرجل النحيف:

- من؟

سار رجل السيجارة بخطوات واسعة ناحية نهاية الشارع وتبعه الرجل النحيف بفضول، بينما تأخر الرجل الأول قليلا لا يعرف ماذا يفعل، لكنه تبعهما في النهاية لأنه يحتاج أن يعود بمبرر أقوى ليهدئ غضب زوجته.

وصلوا لآخر بيت بالشـارع، بيت مرتفع أقصى اليسـار، حوالي خمسة طوابق. صعدوا الدرج بأقل جلبة ممكنة. تسـاءل الرجل الأول بينه وبين نفسه عن الناس، لماذا جميعهم في أسرَتهم هكذا، أين ذهب السهر وتمضية الليل في الشوارع؟

وصلـوا أخيرا لباب بُني متآكل من الأسـفل. طرق رجل السـيجارة الباب بعد سحب نفس من سيجارته، نفس طويل كأنه يأخذ الكلام كله دفعة واحدة. فتح الباب رجل ضخم، بطنه المنتفخ أمامه، ونظر إليهم في دهشة ثم سأل الرجلَ النحيفَ:

- ألست جارنا هنا؟

أجابه رجل السيجارة:

- وأنا أيضا جاركم.

- عفوا لا أتذكرك! هل كنت مسافرًا؟

- لا، أنا بالشارع طوال الوقت. أسكن بجوار المخبز.

- أهلا بكم، لكن من هذا؟

وأشـار للرجل الأول، فنظر الرجل النحيف إلى نفس الرجل وسـأل رجل السيجارة:

- صحيح، من هذا؟

نظر إليه رجل السيجارة بدوره وقال:

- لا أعرفه، إنه رجل يبحث عن من بلل معطفه

سأل الرجل الأول رجلَ السقف متجاهلا رفيقه:

- هل أمطرت منذ قليل؟

اندهش رجل السقف من سؤاله وقال:

- وما أدراني إن أمطرت؟

غضب الرجل الأول قليلا وسأل رجل السيجارة:

- ألم تقل إنه يعرف؟

قال رجل السيجارة بسرعة:

- لا لم أقل ذلك!

سأل الرجل النحيف:

- إذن لماذا نحن هنا، دعونا نبحث عن المطر في مكان آخر.

جاء صوت امرأة من وراء الباب:

- هل بدأ موسم المطر، هل أمطرت الليلة؟

اشـتعل وجـه رجل السـقف وحـاول تهدئـة الموقف موجها رأسـه للداخل:

- اصمتي يا امرأة، من ذكر المطر هنا؟

- نعم، لقد بدأ موسـم المطر. كم مرة طلبت منك إصلاح السـقف، وها قد بدأ وسنغرق كالموسم الفائت!

سحب رجل السقف معطفه وخرج مسرعا وأغلق الباب وراءه، لكن هشاشة الباب لم تمنع صوت المرأة من الوصول إليهم. ضحك رجل السيجارة ضحكة مكتومة وقال في سره:

- يا لكم من حمقى، كم أحب المرأة كثيرة السباب.

سـاروا بمحاذاة حجرة رجل السـقف. حجرة صغيرة مبنية بالطوب الأحمر فوق سـطح البيت، سـقفها ضعيف ومكون مـن عدة طبقات من الصفيح. قال رجل السقف:

- الأرض جافة، متى أمطرت بالضبط؟

قال الرجل النحيف:

- لا أعرف، هذا من قال إنها أمطرت.

وأشار لرجل السيجارة الذي سحب نفسا من سيجارته وقال:

- لا لم أقل ذلك، بل هو من قال إنها أمطرت.

وأشار للرجل الأول الذي قال بدوره:

- لم تصـدق زوجتـي أيضًا. لكن لماذا نحن هنا؟ وجّه سـؤاله لرجل السيجارة.

- ألم تفهموا بعد- قال رجل السقف- انظروا لهذا السقف، إن أمطرت من سيدرك ذلك أسرع منه؟

بدا الأمر منطقيا للجميع الآن، فأكمل رجل السقف:

- ونحن لم نبتل بالداخل.

لكن الرجل الأول باغته بسؤال لا علاقة له بالمسألة:

- لماذا لا تصلح السقف وتتقي شر زوجتك يا رجل؟

- لأنك أحمق. هل نمت قبلا تحت سقف من الصفيح أثناء المطر؟

- لا لم أفعل، لكني رأيت غضب الزوجات، وتحسس رأسه الساخن من أثر الضربة.

- الأمر أشبه بالسحر، نقرات المياه على الصفيح واهتـزازاته بفعل الرياح أجمل من أي جنس مارسته من قبل. زوجتي امرأة شمطاء لا تفهم شيئًا.

سرحوا جميعا في كلماته، وسحب رجل السيجارة عدة أنفاس متتالية من سيجارته، فيما قال رجل السقف:

- دعونا نصعد للسقف لنرى إن كان هناك أثر لأي ماء.

صعد هو أولا، تسلق سلمًا خشبيًا وصعد بصعوبة لاحتكاك بطنه المتنفخ بدرجاته، ثم تبعه الرجل النحيف فرجل السيجارة الذي علق سيجارته بين شفتيه حتى وصل لأعلى، وأخيرا الرجل الأول. أشار لهم رجل السقف أن يسيروا أقصى اليسار حتى لا يسقطوا في منتصف حجرته. مسك ذراع كل منهم ليساعده في العبور.

- يا ربي، إنكما مبتلان، من أين لكما بهذا البلل؟

وصلوا لحافة السطح وجلسوا متقاربين وأرجلهم معلّقةُ بالهواء.

الشارع الطويل تحت أقدامهم والليل يحيطهم. سحب رجل السيجارة علبة السجائر من جيب المعطف الداخلي، ووزع من علبة سجائره عليهم.

قال رجل السقف:

- الشتاء لا يزال في بدايته.

ثم سحب نفسًا من سيجارته بلذة وأضاف:

- أفضل جنس، أليس كذلك؟

لم يجبه أحد، كانوا شاردين داخل المشهد الليلي الصامت.

بينما قال الرجل الأول بصوت خفيض:

- أنا متأكد أن السماء أمطرت في هذا الشارع منذ قليل.

موسيقى الممر الخلفي

تفحص علي يديه بنظرة طويلة وانتبه إلى أن أظافره متسخة، فطلب من محمـود منديلًا. من يهتم بأظافر صبي مكواة؟ من يراه؟ لكن أظافر صبي المكواة، بحسب ما قال علي، أهم من المكواة نفسها.

حينها، رفع محمود أظافره لأعلى بمحاذاة عينيه، وردد سـاخرًا عبارة علي عن أهمية أظافر الصبي، فتجاهله الصبي ومال للأمام ليربط حذاءه، فوجده مربوطًا، فعدل من وقفته مرة أخرى. نظر بتمعن في زجاج سيارة مجاورة ليتأكد من هيئته النظيفة وشعره الممشوط. كان أمر أظافره يلح عليه ويفسـد كل الترتيبات. حين لم يجد من محمود أي انتباه، انسـحب غاضبا وهو يفرك أظافره داخل كفه. بينما ضحك صاحبه ضحكة مكتومة وجلس على الرصيف.

لاح الأمل أمامهما في ذلك النهار. لم يكن محمود يتخيل أن أي أمل قد يلوح في قيظ كهذا. عرقه غزير، سال فوق جبينه وألهب عينيه.

كان الشارع خاليا إلا من بعض المارة، حتى أن قطط الشوارع وكلابها كانت مختبئة تحت السيارات الساخنة.

فرك محمود نصف سيجارة احتفظ بها منذ الليلة الفائتة، ثم عدل جلسته ساندا ظهره إلى مقدمة إحدى السيارات في قبالة مدخل العمارة، حيث يكون في وضع استعداد للجري في أي وقت إذا لمح علي يجري من مدخل العمارة، أو سمع صوته يصرخ.

نظر إليه وهو يبتعد، كان علي طويلًا بظهر منحنٍ للأمام، يرتدي قميصا بيج نظيفًا، غسله محمود خصيصا من أجله وعطره بماء الورد بعد سرقته من غرفة جده. أكثر ما انتبه إليه محمود هو قفاه، كان كهلا عريضا انحنى تحت ثقل رأسه الكبير الذي يكاد يسقط منه إذا لم ينتبه. كان يمشي عكس أشعة الشمس التي تكسرت على هيئته، وتموجت جزيئات الهواء من حوله. بدا كأنه يسير في قلب زمن آخر.

تململ علي قليلًا قبل الصعود. عليه أن يقوم بمهمته بسرعة واحترافية كأنه وُلِد ليقوم بها في كل يوم من عمره. يطرق الباب ويسأل السؤال في خفة دون الإمعان في النظر، ثم يرحل سريعًا سواء أخذ ما جاء من أجله أم لا. اختار محمود هذه البناية لأنها بلا حارس منذ عدة أيام. بجانبها بناية أخرى مشتركة معها في السلالم الخلفية، بذلك يمكنه التسلل إليها دون المرور على مدخلها.

هو الآن صبي الكواء، عليه تصديق ذلك. لطالما تساءل عمن يكون، لذلك يحب السينما ويتقمص الأدوار ويحفظ المشاهد ويعيد الحوار على آذان من حوله. ربما كان يقول لنفسه: أنا الآن صبي الكواء، ألوح من حرارة المكواة، من وراء المناضد العالية والمشاجب البلاستكية الرخيصة الملونة. أرسم بقطعة حديد ساخنة خطوطا متوازية ملساء، وأهذب الثنيات. أنا الحاضر الغائب في نزهاتهم واجتماعاتهم وأفراحهم وجنائزهم. أقف دوما في الظلام بينما هم في دائرة الضوء.

ردد جملته عدة مرات وهو في طريقه للطابق الأول، ككومبارس أصبح لديه جملة طويلة أخيرا على خشبة مسرح. طرق الباب الأول ببطء وأظافره مغروسة بلحم كفه. طلت فتاة برأسها بسؤال متعلق بعينيها:

- نعم؟

فردّ بصوت مبحوح حاول أن يبدو طبيعيا:

- مكوى؟

واربت الباب وغابت دهرًا كاملًا ثم عادت ببعض الملابس المكرمشة. وضعتها في يده بعنف وأغلقت الباب. فتش بها على عجل، لكنه لم يجد ما يستحق التوقف لأجله. فتوجه للباب الثاني، بخطوات أكثر خفة. تكرر المشهد الأول وأُغلق الباب وبيده بعض الملابس. بدأ يحب اللعبة بعد الباب

الثالث، ولم يعد يفتش فيما بين يده، ونسي أمر أظافره القذرة.

أصبحت خطواته أكثر اتساعًا، خطوات رشيقة راقصة، حتى إنه التفّ حول نفسه عدة مرات عند بداية الدرج للطابق الأعلى. تذكر دومينيك(*) في نشـوته وعبوره الشـارع بينما نودلز يعزف في الخلفية موسـيقى هادئة. لا بد أنه كان سعيدا جدا في تلك اللحظة، أكثر سعادة منه هو الذي يسير في طرقات ضيقة تأكلها الرطوبة وتلعب في أنحائها القطط الجرباء والفئران. كان لهذا الشعور وقع غريب على نفسه، لم يسبق له الشعور بالفرح هكذا. صوّر له الوهم أنه فاض سرورا، لكن هنا بين الدهاليز المتعفنة وهو يسرق، لا يعدو كونه "حرامي غسيل". هنا توقف ورأى أمامه مشهد قتل دومينيك وردد جملته الحزينة بنفس البطء:

- نولدز، لقد انزلقت.

حين نزل لـ محمود، كانت كومة ملابس بيده، وأفكار الموت برأسه قد سـيطرت عليه. أشار له بأن يسرع وتوجها لشـارع جانبي. نظر لـ محمود وقال:

- "أحيانا عندما أقود السـيارة، عـلى الطريق ليلا، أرى ضوء فانوسي سيارة يتجهان نحوي. يدفعني شعور مفاجئ لأن أدير المقود بسرعة واتجه

(*) دومينيك: المشهد من فيلم once upon a time in America

لأصطدم بالسيارة القادمة. أستطيع توقع الانفجار(*)...

قاطعه محمود بلهجة درامية:

- أحسـن حاجة في الفيلم الأخير إنه كان أكشـن، مليان دم وعنف، وأهو الحمد لله خلّصك من برودك.

- أنا جاد فعلا في فكرة الانتحار، انت ما فكرتش في دا قبل كده؟

- الرجالة ما بتنتحرش، وبعدين هنتحر ليه؟ مافيش أجمل من الفرجة على فيلم، مرة بطله ينتحر ومرة بطله شـاب رومانسي بيشتغل في المكوى وبيسرق الهدوم، وفي الآخر يموت فأي حارة.

سارا متجاورين في صمت. يوجهه محمود بعناية. قطعا الشارع التجاري الواسع، وتوجها لمتجر ملابس صغير. دخل محمود بمفرده ليتفاوض بشأن السعر، بالكاد يسمعه علي يجادل ويحسن التفاوض، يعلو صوته وينخفض حسـب المبلغ المطروح. كان الظلام بدأ يخيّم عـلى المكان، وبدأت حركة الشـارع تزيد. كان علي مغمورًا بهدوء كالذي يسود بعد بداية العرض في صالة السينما.

توجه لمقهى مجاور، انتظارا لانتهاء المفاوضات، ورأسه يثقل أكثر فوق كاهله العريض. عاد محمود وكان مزموم الشفتين. عرف أنه لم ينجح هذه

(*) العبارة من فيلم Annie Hall

المرة، ودّ لو يقول لا تبتئس، فالبؤساء هم الآخرون جميعًا (*) لكنه لن يضمن رد فعله، فصمت. عرف إنهما سيكرران ما فعلاه مرة أخرى، لم يكترث. قلبّ شفتيه وطلب شايا خفيفا بالنعناع.

حدد محمود البناية الثانية، وقال لـ علي عليك أن تكون أسرع هذه المرة، دعنا ننتهي مبكرا. مال علي ليربط رباط حذائه، بقى قليلا في الأسفل ثم عاد إلى وضعه، وهز رأسه متفهما.

في البناية الثانية، كانت خطواته أسرع وطرقه على الأبواب أخف. كان يخشى صبي المكواة الحقيقي، لكنه اطمأن قليلا حين نهره عجوز لأنه لم يعد يمر كثيرًا كالسابق. يسير بحذائه في خطوط مستقيمة، موازيًا للجدار ومتجنبًا النظر للمناور لأنه يخشى الفئران.

طرق الباب الثاني في الطابق السادس بتململ، ونوى أن يكون الطابق الأخير. كانت كومة الملابس بيده تعسفه. أسند ظهره على الجدار المقابل متجاهلا رغبة ملحة في إشعال سيجارة. كاد يبتعد حينما تأخر أصحاب الشقة في الرد، لكنه طرق الباب مرة أخرى إمعانا في التأكد.

فتح طفل صغير، نظر إليه بعين كبيرة منتفخة ثم جري من أمامه في الممر الطويل واختفى في المنحنى. ظل واقفا لثوان، ثم فتح الباب بأطراف

(*) العبارة من فيلم Annie Hall

أصابعه. موسـيقى هادئة تتسـلل من وراء الممر، استمع إليها بملء أذنيه كعطشان. كانت كفاصل رقيق بين ما مر من حياته وما سيأتي. تبعها وخطا ببطء في الممر، كان الحائط غامقًا، أملس وباردًا، فكر أنه مغلف بالرخام. لم يسـتطع الرؤية ليتأكد، كانت فكرة لصق أحجار رخام ضخمة بحائط مزعجة بالنسبة له. الموسيقى خلفية غير ملائمة لمشهد تقطيع الرخام ولصقه متجاورًا في ممر شـقة بالدور السادس. لم يستطع تخيل المشهد كاملا، كأنها ارتبطت نهايته بنهايـة الممر الرخامي، لكنه خطا خطوات كثيرة ولم يصل بعد. لا يعلو صوت الموسـيقى كلما خطا، لا تقترب ولا تبتعد، نغمات لها وقع ثابت.

ظهر الطفل أمامه مرة أخرى، باكيًا نصف عارٍ، وبعد أن حدّق فيه من آخر الممر، أشار إليه أن يتبعه. انكمش الممر ليجد علي نفسه على حافته، أمامه ردهة صغيرة، يتوسطها سجادة حمراء هزيلة، لم تفلح المساحيق والفرشاة الخشـنة في إزالة البقع الغامقة منها، ومع ذلك بـدت نظيفة والبقع بدت كشـامات الحسـن، صغيرة ومتناثرة. على كرسي بمسند، كان هناك رجل جالس بملابس داخلية بيضاء أمامه تليفزيون صغير، تصدر منه الموسيقى. بشاشة التليفزيون شرخ وشريط أسود عريض، يدور فيها من أعلى لأسفل ببطء. تجشـأ الرجل محدقـا بالتليفزيون، لم يبد أي دهشـة من دخول علي المفاجـئ. ركض الطفل أمامه وبيده كرة صغيرة يقذفها لأعلى مرارا حتى

ارتطمت بالشاشة الصغيرة فزداد الشرخ. مذهولا، استقبل لطمة الرجل على ظهره وتبعتها عدة لطمات على صدغه وذراعه الذي حاول حماية نفسه به. أسرعت سـيدة صغيرة من الداخل لتنقذه مولولة. وفستان بنفسجي طويل لم يفلح في تغطية نهديها بالكامل يتثنى مع حركات جسدها السريعة. انتشلت الطفل من يديه وحملته متوعدة له بكل ما استطاعت من القول. لم يتركها الرجل، قام خلفها بجسد هزيل غاضب. أزاح الطفل من حضنها وألقى به أرضا.

تابع علي المشـهد الذي أصبح إيقاعه بطيئًا، كان الفسـتان البنفسجي يخطـف نظره. ألحت فكرة في عقله بأن هذا المشـهد رآه من قبل. ألقى بها الرجل على الأرض، وذراعاها أمامها في محاولة استجداء. امتطاها بتلكؤ، ويداه تعبثان أسفل فستانها وترفعه. الطفل يبكي في ركن الحجرة على طرف السجادة، فيما يلج الرجل عضوه بداخلها، وفيما ينهج علي وينظر للفستان المرفوع ويغطي ذيله نهديها ووجهها. لم تطغ الصرخة على صوت الموسيقى أبدا ولا على صوت نحيب الطفل.

انتهى منها. ووقف وقدماه ترتعشـان أسفله بينما ضمت هي قدميها، والفستان الممزق فوق خصرها. قال علي أخيرا: "لا"، لكن صوته لم يخرج، وبدت الشقة صغيرة جدا. سمع الباب يصفق بقوة خلفه، وأدرك أنه غير مرئي هنا. كان شعور الخذلان يطفو في عقله، لقد خذل نفسه بعبوره المر

بأن سمح لرجل بعضو كعود كبريت أن يهينه بهذا الشكل، باستسلام المرأة المهين وفستانها الفاضح وفرجها الأبيض النظيف. لم يصدق أنها مغتصبة، قال لنفسه لقد رأيت شبح ابتسامة بين صرخاتها. لكنه تعاطف مع الطفل، مع ندبات زرقاء على فكه ورقبته، مع ظهره المحني قليلا للأمام يكاد يقع من ثقل رأسه.

لمح طرف الفستان البنفسجي على ذراعه. لم تسعفه ذاكرته، فلم يعرف من أي شقة حصل عليه. مال للأمام نحو الطفل، ربت على رأسه ثم حمله ولف جسده بالفستان البنفسجي. كثيرا ما كان يتساءل عن شعور من يحمل طفلا صغيرا بين ذراعيه، أسنده إلى كتفه وسار به نحو الممر. قال له(*):

- تعرف اللحن اللي كان خارج من التليفزيون؟

- التليفزيون عطلان.

- واللحن جي منين؟

- مني، أنا الـ بدندنه.

- انت تعرف قصة اللحن دا إيه؟

هز رأسه نفيا، فتابع علي كلامه:

(*) العبارة منقولة بتصرف من فيلم Eternity and a Day

- هحكـي لـك قصتـه بعديـن، أو ممكن نتفـرج على فيلـم يحكي لنا القصة.

ثم ابتلعهما الممر الرخامي.

حجرة السيدة "س"

- أتعرف؟ أنا أحب أحذيتي القديمة.

قالتها السيدة "س" بعدما انتهت من ري أصص نباتاتها. لحجرتها بابان، وشباك صغير يطل على السماء. لن تقاوم الإطلال منه في ظهيرة الأيام الخريفية البديعة. على الشباك ستارة زرقاء تصل للأرض ويحركها الهواء كعروس ماريونت. يعكس الضوء المربعات المطبوعة على الستارة "الفوال" فوق الكنبة المجاورة وعلى أطراف وسائدها ويتدلى للأرض. حين تطير الستارة في فضاء الحجرة، تؤرجح ظلال المربعات في طريقها ذهابا وإيابا، وتتداخل المربعات وتختلط أشكالها وتتمازج لتكوِّن أشكالا هندسية أخرى مختلفة الأبعاد ثم تعود لتربعاتها بسكون الهواء.

حجرة متوسطة، طويلة إذا دخلت من الباب الأمامي. الشباك الصغير أمامك على اليمين قليلا. أمامه كنبة اسطنبولي عريضة تحب أن تجلس فوقها السيدة "س" في الصباحات الرائقة. تراقب المربعات فوق طرف الوسادة، تعدها بهدوء وصبر وتعيد عدّها بعد كل مرة يخلطها الهواء في طريقه.

كانت تعلم أنها خمسة عشر مربعًا، ثلاثة في كل صف أفقي وخمسة في الصف الرأسي، لكنها لم تكف أبدًا عن عدّ ظلالها الساكنة بجانبها.

تشرب الشاي الخفيف بالنعناع قبل استيقاظ الجميع، لا تحب النعناع المجفف، إنما تضع أوراقه الطازجة في كوب الشاي. تغمسه بإصبعها الأبيض الأنيق في الماء المغلي بعد قطفه مباشرة من أصيص الزرع الذي يزين شباكها.

بجانب أصيص النعناع أصص كثيرة لكنك لن تراها من الباب الأمامي للحجرة. لن ترى منها سوى ما يسمح الهواء به أو إذا دعتك السيدة "س" لتسقيها وفتحت الستارة بنفسها. ثم تجلس بجانبك وتستأنف حديثها:

- أحذيتي القديمة تعرفني أكثر مما يعرفني أي شخص آخر. هل ترى الإصبع الطويل المنفر هذا؟ إنها تحتويه وتحبه رغم قبحه. إنها تبتسم في لطف في نهاية المشوار، قبل أن أستند إلى أطرافها كلاعبة بالية قعيدة. حتى أني أغمض عينيّ حين أكون بصحبة الحذاء الأحمر لأنه يعرف الطريق جيدا ولا يخذلني. الأحذية القديمة الجيدة لا تخذل أحدًا.

لا ترد، فقط أومئ برأسك في تفهم. إنك هنا لأن السيدة "س" تريد الحكي لا لتستمع لحكاياتك، هي وقحة، لن تتأخر عن تذكيرك بهذا.

أمام الكنبة، على يسار الشباك، ستجد سريرها. سرير خشبي صغير

مطعم بالنحاس، لا يتعدى عرضه المائة وعشرة سنتيمترات. لن تقيس العرض بالطبع للتأكد لكنك ستسمع السيدة وهي تقول إن السرير عرضه مائة وعشرة سنتيمترًا بالتمام. ستسمعها تحكي عن زوجها الذي أرسل في طلب السرير خصيصا لها قبل رحيله.

جفاها النوم على سرير هما العريض. فنقلته السيدة من أمام الشباك، لكنه كان عريضا لدرجة لا تسمح له بالمكوث في مكان آخر. حينها، أرسل زوجها طلبا مع ابن عمه للنجار الأشهر بالقرية البعيدة ليصمم سريرًا خشبيًا بقوائم نحاسية عالية مجوفة لا يتعدى عرضه المائة وعشرة سنتيمترًا لأن السيدة تكره الرقم عشرين ولن تسمح المساحة يسار الشباك بسرير يزيد عن المائة وعشرين. ثم مات زوجها في اليوم التالي لقدوم السرير. كان نائمًا فوق الكنبة، كما كان ينوي أن يفعل بقية عمره.

بجانب السرير تسريحة بمرآة عريضة متصلة بدولاب صغير خاص بالسيدة فحسب، تحتفظ بمفاتيحه بجيب فستانها، وكل فساتين السيدة بها جيب في الناحية اليسرى حتى التي تأتي بدون جيوب، تخيط بها جيبًا من القماش تقصه بعد تقصير الفستان لأن السيدة "س" قصيرة، أقصر من كل الفساتين التي تباع في هذه الناحية.

بالتسريحة أربعة أدراج بدون مفاتيح لكن بقيود كثيرة مفروضة على من يجرؤ ويقترب. تحتفظ في أول درج بعلبة شيكولاتة بلاستك أنيقة عليها

ورود بارزة ملونة، علبة دائرية بدون غطاء وبدون شيكولاتة كذلك، مليئة ببكـرات الخيوط الملونة وبالأبر الطويلـة والقصيرة وإبرة كنفاه ودبابيس مشـبك وإبرة وبروش فراشة مكسـور جناحها وجناحها بجانب العلبة، وضعته في الدرج بمفرده لأنه مفرغ ويمكن للخيوط الاشتباك معه. نسيته مع الوقت وذكرتها أنا به حين فتحت الدرج دون أذنها وأخرجت الجناح، كنت أنوي الاحتفاظ به. لكن السـيدة رأتنـي قبل إخفائه بجيبي ونزعته مني قائلة إن للجناح فراشة.

بالدرج الثاني، ألبومات صور، إذا أحبتك السيدة "س" ستأخذك من يدك وتجلسك فوق الكنبة العريضة، ستطلب منك تناول إحدى الوسادات التي بجانبك لتضعها في الفراغ بين ظهرك ومسند الكنبة حتى تستريح أكثر بجلسـتك. ثم تضع ألبوم الصور الكبـير بحجرها والألبومات الأخرى بجانبها، متراصة الأقل عرضا بالأسـفل والأكبر بالأعلى. ينزلق الألبوم الكبير طوال الوقت وتعدل هي وضعه باسـتمرار. سـتودّ أنت لو تضعه بالأسـفل ليستقر لكنها ستكون حريصة على وضعه هكذا، بالأعلى، لأنه الثاني في الترتيب الزمني بعد الذي في حجرها. إذا أحبتك السيدة ستزهقك، ستحكي لك عن تاريخ كل صورة.

السيدة "س" التي أخذت ذاكرتها في التآكل، لا تنسى أبدا لون فساتينها التي كانت ترتديها في الصور الأبيض والأسـود، وستظل تبحث بعينيها

الخضراوين حولها عن درجة اللون الأقرب لألوانها وحين تصل لصورتها التي تمسك بها الكرة على شاطئ المعمورة، ستشير لفستانها المنفوش القصير وتقول إن النقط الصغيرة تلك كان لونها أبيض بالفعل كما تبدو بالصورة أما الفستان نفسه فإنه بلون عينيها، وستبرّق لك لتدعك ترى.

لن تعرف ما بالأدراج الباقية، لأن السيدة "س" نسيت ما بها. لم تعد قادرة على الانحناء لذلك كفت عن الاهتمام ولم تعد تنهر من يعبث بمحتواها. قالت لنفسها منذ سنوات إنها طالما لم تعد تتذكر شيئاً فإنه حتما ليس بالشئ المهم. فما ننساه يظل يدق في الدماغ بإزعاج لينبئنا أن علينا التذكر؛ لتظل ما بقى من عمرك تفتش عنه لكنك لا تجده أبدا.

أما الجدران، فبيضاء منقوشة برسومات حمراء صغيرة. لطالما وقفت أنا ملاصقا لها في محاولة لاستخراج أشكال مختلفة. كانت كل الرسوم تشبه أحصنة البحر لكنها لم تكن مطابقة لأجسادها الضئيلة الدقيقة. كما أني لم أكن على علاقة جيدة بحصان البحر، لم أعرفه في طفولتي وبدا لي كائنا باردا لا يربطني به شيء. في كل زيارة كنت أحاول أن أفتش عن رسمة جديدة. رأيت العديد من العلامات الموسيقية والبط الصغير والورد البلدي المفتح وأولادًا ضاحكين أو بكائين. أصبح الأمر كتميمة حظ، ما أكتشفه في كل مرة قد ينعكس على يومي بأكمله.

حين تمر عليها تجدها لا تبالي، متفردة في وحدتها. تتحدث في كل شئ

لكنها لا تفصح عما تفكر. استيقظنا يومًا على جلبة شديدة، ثم شاهدنا أثاث شقتها كله بالشارع، يرفعه حمالون ويثبتونه على عربة كبيرة. حسبنا أنها ستنتقل لمكان آخر، لكنها لم تبرح مكانها. أبقت على حجرتها. حاولت وضع نفسي مكانها، أن أبقى مع شباك جميل بإطلالة، أن أرتدي الفساتين الملونة الجميلة وأزين شعري بأمشاط صغيرة مزينة باللآلئ، أن أنام فوق سرير جميل صُنع بالحب. أن أكون وحيدا تماما فأدعو الجيران لأحكي حكايات.

عرضت السيدة حجرات شقتها للإيجار، كل حجرة على حدة. كان المقابل هو قبول دعوتها على كوب شاي بنعناع طازج أو على الغداء أحيانا وتركها تتحدث. لم تقل إن من حقها أن تعرض عليك ألبوم الصور أو حكي حكاية سريرها الصغير أو حتى التحدث عن الأحذية القديمة.

للحجرة بابان كما أشرت، كان يمكنك أن ترى حياتها من الباب الآخر كذلك، لكنك لن تستطيع الآن لأن المستأجر الجديد أغلقه بمزلاج كبير أما هي، السيدة "س"، فلا تغلق بابها أو شباكها على الإطلاق.

الأمانة

لم يكـن بالقرية إلا محل حلوى وحيد، كسـدت سـوقه، فكان حجاج يتردد على المدينة من آن لآخر لجلب البسبوسة لأمه العجوز. لم تفتنه المدينة الكبيرة؛ كان يهاب شوارعها الواسعة المزدحمة. يستقل القطار صباحا ليصل إليها قبيل الظهيرة. وفي عشية سفره، يؤكد على سميح ألا يبرح الدار حتى عودته، ويطيعه سميح بالفعل طمعا في قطعة بسبوسة شهية.

يترجل من القطار ويتجه مباشرة إلى بوابة المحطة دون أن يوقفه شيء. يعبر الطريق للناصية المقابلة ثم ينعطف يسارا حيث متجر الحلوى الكبير، يشـتري ما يحتاجه ويجلس على المقهى المجاور ليشرب "سحلب". ينطلق قطار الرجوع بعد سـاعتين من وصول القطـار الأول، فيعود إلى المحطة راضيـا ومنها إلى أمه المنتظـرة. يفعل ذلك في كل مرة كإنسـان آليّ مبرمجًا بدقة هائلة.

في كل مرة تسأله أمه "هل قابلت الرجل؟" فيجيب بنعم. فتعاود السؤال "كما وصفته لك؟" فيومئ برأسه "كما في حلمك تماما".

لم يغير حجاج برنامج رحلته لأشهر عدة، منذ أن استيقظت أمه يوما وهي تطلب البسبوسة. كانت رؤيا، كما قالت. جاءها أبوها ومعه رجل أخبرها بأنه ينتظر بالمدينة ليعطيها قطع البسبوسة، أحضرها لها من صحن النبي. وقال إنها من الفردوس الأعلى، تذوقتها في الحال تبركا بالحبيب، ثم بدأت الرحلات ذهابا وإيابا إلى المدينة مثل رحلات حج مقدسة.

زارا معا الطبيب عندما تكررت الرؤى والطلبات الغريبة. رأت في بداية الشتاء بلحًا نابتًا على شجرة تفاح في مدخل القرية، ومضى حجاج يبحث عن البلح في غير أوانه حتى يعطيه لأمه. أوصى جميع التجار وبائعي الخضر والفواكه بالبلدة. كانوا يبحثون معه عن البلح رحمةً بأمه وبه، حتى وجده أحد الباعة بصعوبة في قرية مجاورة وباعه له بثمن غال، دعا ربه حينها ألا ترى أمه فاكهة إلا في أوانها.

تحدث معها الطبيب قليلا دون فحوصات ثم طلب منها الانتظار بالخارج. فهم منه حجاج أنها شيخوخة وأن ما تراه من رؤى غريبة من أعراضها وأن ما عليه سوى إراحتها. لذلك ينفذ أوامرها طالما في استطاعته دون مناقشات كثيرة.

لم يبحث عن الرجل بالمدينة، بل توجه مباشرة لمتجر الحلوى. وهل يعقل أن يقف شيخ وقور مثله في شارع عريض مزدحم باحثا عن رجل قصير من حلم أمه بيده لفائف حلوى.

وعلى الرغم من أنه يبدو له ضربًا من الجنون، لم يؤخر يوما طلب أمه وإن كان يتذمر من حماقته بينه وبين نفسه أحيانا. حاول المساعدة في رواج سوق متجر الحلوى بالقرية حتى لا يضطر إلى الترحال للمدينة، لكنه لم يحرك ساكنا. وذات صباح، اصطحب سميح واشتريا كل ما في المتجر ثم فرقا كل الحلوى على الأطفال والمصلين في المساجد. كانت خطتهما هي إفراغ المتجر تماما، حتى يضطر العاملون به إلى خبز وصنع حلوى جديدة طازجة، تستسيغها أمه وتعتقد أنها من صحن النبي. لكنهما عندما مرا على المتجر في صباح اليوم التالي، لم يجدا شيئا. أخبرهما البائع أنهم لن يصنعوا المزيد إلا بقرب المولد النبوي الشريف.

فوض حجاج أمره إلى الله، واستمرت الرحلات المقدسة للمدينة لكن بخطى متثاقلة. إلى أن توقفت أمه عن طلب البسبوسة، زهدت فيها بعد أن شبعت. وعاد حجاج مرة أخرى إلى الانتظام في عمله بالمدرسة المجاورة. لم يكن حجاج حارس المدرسة فحسب، بل كان شيخها أيضا. يجتمع التلاميذ حوله بعد انتهاء اليوم الدراسي، فيسرد لهم القصص القصيرة من القرآن بصوته الرفيع الذي يثير سخريتهم، لكنهم في النهاية كانوا يفضلونه عن كل أساتذتهم ويقضون كثيرا من الوقت بصحبته.

لم يكن حجاج يدرك أنه سيفتقد رحلاته القصيرة للمدينة، غير أنه وجد نفسه يحكي لتلاميذه عنها وعن السحلب الساخن اللذيذ الذي

لم يذق مثله في أي مقهى من مقاهي القرية. كما حكى فاروق، أحد التلاميذ، عن رحلة أخيه الأخيرة إلى المدينة، وعن زيارته للسيرك الكبير هناك. كان منبهرا بالسلاسل الطويلة التي يتعلق بها اللاعب ويقفز. وصمت الجميع حينما بدأ في وصف فقرة الأسد، فأخبرهم بأن الأسد رفض طاعة مدربه الذي قام بضربه كثيرا بالسياط. لكنهم لم يصدقوه وطلبوا منه الكف عن الكذب فليس في وسع أحد ضرب أسد كل هذا الضرب الشديد. ثم بدأوا التعارك بالأيدي.

في فجر إحدى الليالي، وبعد أن فرغا من الصلاة، نادته أمه، وأمرته بالذهاب للمدينة في قطار اليوم، ليقابل الرجل في الحي الكبير ليستلم منه أمتارا من الحرير، حرير أرسله لها أبوها من عند الحبيب. لم يستطع حجاج أن يجيبها لبرهة، لجمت المفاجأة لسانه ووقف مسمرا في مكانه. سألها باقتضاب "هل هذا حلم أيضا؟". حكت له عما رأته قبل آذان الفجر مباشرة، كان والدها بشوشا منير الوجه، بيده أمتار من القماش المزخرف الجميل، وقال لها إن النبي يرسل لها تحياته ويبشرها بالجنة ويرسل لها هذه الهدية حتى يحين اللقاء. ثم أمرها بأن يذهب حجاج لجلبها من المدينة.

فكر حجاج أن أمه في طريقها للجنون، وأنه لا بد أن يصطحبها معه للمدينة ليراها طبيب أكثر خبرة. تأزم الأمر تماما، في البداية كان يشتري البسبوسة لرخص ثمنها وسهولة الحصول عليها، لكنه الآن مضطر إلى

شراء الحرير أيضا. مضطر للبحث عنه وتوفير نفقات خاصة له. دعا الله كثيرا ألا يتكرر الحلم، أن تتوقف أمه عن رؤية الأحلام تماما. لقد لقى منها عرق الجبين.

لكنه على أي حال استغفر الله وعزم أمره. أملت عليه أمه عنوان ولي الله كما قيل في المنام، وبعد استدعاء سميح، انطلق إلى محطة القطار. مسبحا بحمده ومكبرا.

كان الحي الكبير يبتعد قليلًا عن محطة القطار بالمدينة، وكان الوقت ضيقا، ساعتان باقيتان ليلحق بالقطار التالي عائدًا للقرية. فخرج سريعا من المحطة، يتلفت حوله في حذر باحثا عن سيارة أجرة لتختصر عليه الطريق. كان المكان مزدحما بشدة، لم يلحظ حجاج هذا من قبل لأنه لم يضطر يوما إلى انتظار ما يُقله. التصقت الأتربة بجلبابه ولحيته القصيرة وأدمعت عيناه مما جعله يهرع إلى أول سيارة خالية من الركاب وهو يسمي الله. سبقه إليها رجل بصحبة طفل، كاد أن يُدهس الطفل تحت قدميه ليلحق بالسيارة. لكن حجاج لم يتوقف، واستمر في تقدمه نحو السائق. حتى كادا أن يتشاجرا على من له الأحقية في الركوب. فض السائق الاشتباك وحسم الموقف عندما علم أن ثلاثتهم ذاهبون لنفس الحي، فاقترح عليهم أن يركبوا جميعا.

في السيارة، تحول الغضب لضحكات وتعارف سريعًا. بالطبع لم يبح

حجاج عن سبب قدومه للمدينة، اكتفى بالقول إنه جاء ليقضي بعض المصالح. قال الرجل إنه قادم من أجل طفله، فلقد وعده بالذهاب إلى السيرك المنصوب بالحي الكبير. قال لـ حجاج: "حاول أن تأتي يا شيخ، روّح عن قلبك ساعة". هز حجاج رأسه في تفهم ولم يجب.

لوهلة، اجتاحت حجاج فكرة السيرك. لم يأت السيرك إلى القرية منذ سنوات، لكنه ما زال يتذكر زيارته الأخيرة له. برق المشهد برأسه، هكذا روى عنه لأصدقائه على المقهى يوما ما:

- ثم جاء المهرجون، رجلان وفتاة جميلة لا ترتدي إلا القليل من الملابس. لعبوا وضحكوا كثيرا، والضوء يتراقص من حولهم ويزغلل نظري. كانت هناك حلقة مفرغة معلقة في يمين المسرح، تعلقت بها الفتاة بخفة، وتسلطت الأضواء القوية من خلفها على جسدها. فلم يظهر منها إلا ظلال تتقاطع مع الضوء طوال العرض في خطوط طولية وعرضية، فيما الموسيقى العالية تتسابق مع صيحات الجمهور للآذان. تكور جسدها اللدن داخل الحلقة مكونا حلقة داخلية أخرى بها نتوءات بارزة. تركت يديها تتراقصان في الهواء، ثم تعلقت بقدميها كخفاش وشعرها الطويل ينزلق أسفلها. لم أر ملامحها بوضوح لشدة الضوء الضارب في عينيّ، لكني متأكد أنها كانت تبكي بحزن وجسدها يتلون كحرباء داخل الحلقة. في الحقيقة، هي أجمل ما رأيته يوما.

اختلج صدغه وجحظت عيناه، كان منفعلا. هكذا ظل إحساسه بها سنوات، حتى إنها طاردته في أحلامه طويلا. تبكي بصمت وتتلوى، داخل إطار شباك حجرته، وفي المساحة الصغيرة أسفل سريره، وبين أغصان الأشجار التي تطل على الترعة التي تشق قريته. دائما تتلوى وتتكور وشعرها يتراقص حولها، والضوء في الخلفية يزغلل عينيه.

وصلوا للمبتغى. ترك الرجل يترجل مع ولده أمامه، ثم تبع خطواته. كان السيرك قائما في الناحية الأخرى من الطريق. بوابته صغيرة ضيقة كفرج امرأة، لكنه ينفتح على عالم آخر. لافتته كبيرة، يزينها أضواء حمراء تخطف البصر. طالت وقفته كأنما ينتظر شيئا، كان يصارع طفلا بداخله يتوق للخروج.

أشرق رجل ضخم رغم قصره، سار محاذيا لسور السيرك. ثم عبر الشارع دون انتظار مرور السيارات. لم يره حجاج في البداية، لكن لاحظه حين أربك الطريق. تقدم ناحيته مباشرة، ووقف في مواجهته. كان يتصبب عرقا ويعرقله اللهاث عن الحديث. حسبه حجاج محتاجا فأوشك على صرفه لكنه لحقه وسأله إن كان هو الشيخ حجاج. ذُهل حجاج ولم يرد إلا بعد صمت وبإيماءة من رأسه. فرد الرجل بصوت خفيض معاتبا "أين كنت؟ لقد طفت المدينة من شرقها لغربها! هذه أمانتك".

سلمه اللفافة ثم عبر الطريق مرة أخرى دون تباطؤ وذاب في الزحام.

بهت حجاج. اللفافة الكبيرة بيده وعيناه زائغتان. لا يعرف أين يذهب أو ماذا سيقول. بحث سريعا عن ملاذ ليرى ما بداخل اللفافة. وعلى بعد أمتار، جلس بين شجرتين ووجهه للحائط. تنهد بعمق ليهدأ. وما إن سكنت أنفاسه، حتى فتح اللفافة وهو يسمي الله بخفوت، كان بها أمتار من قماش مزخرف وقطع بسبوسة صغيرة، مقطعة بشكل متساو ومرصوصة في طبق أبيض جميل النقوش، كُتبت على أطرافه "الله أكبر".

الطاووس

الدخان يتراقص بوهن، صاعدًا من عود بخور كشبح لا يجد مخرجًا إلى العالم الآخـر. تأملت هناء بأعين منتفخة مرهقة، حياته القصيرة المحترقة ثـم ذوبانه وتماهيـه التام مع طبقات الهواء المعلقة بالسـقف. حتى كادت الغرفة تختنق به، فظنت هناء لوهلة أنها تحلق بين سحب كثيفة ولم تعد ترى شـيئًا. لم تكن الغرفة كبيرة، ولكنهـا ذات جدران عالية وألوان هادئة بين الأزرق والبنفسجي. ذكّرها ضعف الإضاءة بحجرات الأطباء النفسيين. في منتصـف الجدار المقابل للبـاب، لوحة وحيدة يغلب عليها الأصفر، لم تتبين محتواها في البداية جيدا لحكة في أسـفل جفونها المنتفخة. وفي الركن مكتبة صغيرة بها بعض الكتب المهترئة. كانت غرفة خالية من الأثاث فيما عدا ثلاثة كراسٍ ومنضدة دائرية حديد بالمنتصف.

عادت المرأة إلى الغرفة بفم مفتوح، فيما تخيلت هناء أنها تأخرت لترتدي السوتيان، لكنها لم تفعل. أكدت المرأة عليها أن من الأفضل ألا يعلم أحد بقدومها إلى هذا المكان، وأن الإعلان كان قديمًا للغاية، وأنها استجابت لها

لسوء الوضع. فأجابت هناء بهمهمات توضح أنها متفهمة.

لم تكـن هناء تحسـم ترددها أبدا حيال أي شيء، لذلـك ترددت كثيرًا في البدايـة قبل أن تطرق الباب ذا الرسـوم الدائرية البارزة الخالية من أي ملمـح يدل على ما خلفه. طالت وقفتها، حتى اسـتطاعت أخيرًا التقدم، فانفتح الباب بعد برهة وظهرت المرأة الخمرية بوجهها المسـتدير المبتسم، فقابلته هناء بوجوم وقلق، ثم حاولت أن تتذكر سريعًا اسم الجريدة التي وجدت الإعلان بها، ولكن المرأة بادرتها السؤال.

- مدام هناء؟

انفرج الباب ودعتها المرأة للدخول في بشاشـة. كانت ترتدي فسـتانا قصيرا فوشـيا يكشـف فخذيها الممتلئتين بابتذال، فاستطاعت هناء رؤية الدهون المتراكمة في أعلى فخذها ترتج بينما تسير أمامها إلى ما بدا لها غرفة الاستقبال. وفكرت أن برغم كل هذه الدهون، إلا إنها تحمل مؤخرة مثيرة، ويبدو إنها تعرف أهمية ذلك.

وصلتا لباب الغرفة، ووقفت المرأة قبالتها بكامل جسدها لأول مرة. لم تكن ترتدي سـوتيانًا، فقالت هنـاء بلا وعي، زوجي في طريقه إلى هنا. فأجابت المرأة بأنها بالطبع تعرف ذلك وأن الدعوة كانت لهما معًا. النهدان الصغيران كانا يهتزان مع كل حرف تتفوه به، وشـعرت هناء برغبة ملحة في اعتصارهما بقوة كثمرتي ليمون طريتين.

دعتها المرأة للجلوس، وفور جلوسها، لاحظت هناء بابًا قصيرًا بجانب المكتبة في أقصى الغرفة، مطليًا بنفس لون الجدار، فكان مختفيًا. وثبت من مكانها تبحث عن قطط أسفل قدميها وقالت إنها تخشى القطط كثيرا وإنها بالتأكيد تدخل وتخرج من هذا الباب. فضحكت المرأة، ثم طمأنتها أنه هنا لأغراض أخرى.

صمتت هناء وجلستا أخيرا متجاورتين، وذهبت عنها أفكارها لبرهة، حتى إنها اجتهدت لتتذكر سبب قدومها لهذا المكان. ثم لاح الإعلان الصغير في الجريدة بالأفق، وتذكرت أنها جاءت بعد إلحاح كثير حتى وافق زوجها الذي لم يتحمس في البداية، وأبدى ضيقه من رغبتها. ولكنها لم تستسلم كما اعتاد وازداد إلحاحها، ثم ما إن طفح بها الكيل حتى بدأت في إطلاق التهديدات. فانصاع كرها وبطنه المنتفخ يئن.

لم تنتظر هناء حتى تبدأ المرأة حديثها، وقالت برجاء:

- مش عايزه أسمع نهنهته بالليل تاني!

- أكيد ده بيزيد توترك.

- بيخليني أكره إني ست.

نظرت لها المرأة في تفهم وربتت على كتفها. بدأت الحكة في جفونها تزيد، وضاق تنفسها. رفعت رقبتها لإيجاد المزيد من الهواء وسط هذا

الدخان الكثيف، فرأت السـقف أسـود. جعلها هذا تنتبه بشـدة إلى ثقل الليل على أعصابها لسنوات.

وصل الزوج حسب الميعاد المتفق عليه، وجهه جامد خال من التعبيرات. عرفـت هناء أنه لا يزال مصدوما من فكـرة قدومه. فكرت أن تهدئ من روعه ولكنها تراجعت وتركته ليواجه الموقف بمفرده. اهتز صدر المرأه بقوة وهي تقف لترحب به، فأجابها بكلمات مبهمة مقتضبة. ثم جلس بجانب هناء، وسحب سيجارة من علبة فاخرة بجيب بدلته. وبعد أن التحم دخان سجائره بالسحب الكثيفة، وصارت أكثر ثقلا، بدأ الحديث:

- أنتِ شغالة هنا لوحدك؟

- النهاردة بس، مساعدتي في أجازة.

فردّ ساخرا:

- شكلك بتحبي تساعدي الناس.

نظرت المرأه إليه طويلا، تفرست في ملامحه وضاقت عيناها الواسعتان. ثم فتحت فمها ربما لتعترض ولكنها أطبقته مرة أخرى. وأدارت وجهها ناحية هناء التي أغلقت عينيها تماما وأسـندت رأسـها على يديها. فقالت المرأة بعد برهة في محاولة لتهدئة الأجواء:

- إحنا هنا علشان نتكلم شوية مع بعض.

- اللي أعرفه إني هنا علشان أثبت لك رجولتي!

ثم وقف وفك حزام سرواله في هدوء وفتح زر بنطلونه، وأنزل ملابسه حتى ركبتيه. ثم مسك عضوه الضخم وقال بهدوء:

- شايفه ده؟ شغال كويس وممكن تسأليها!

وأشار إلى زوجته التي بدا عليها الغضب، فنظرت لها المرأة متسائلة:

- الكلام ده صحيح؟

فأجابت بحدة:

- جربي لو عايزة!

سكن المشهد تمامًا حتى ارتدى الزوج ملابسه مرة أخرى. وتجول ببصره في الغرفة وهو يزوم بأصوات خافتة كمن يلقي تعويذة لا أصل لها. ثم وقف أمام اللوحة(*) الوحيدة وحدق بها طويلا. ولما طال وقوفه، نغز الفضول هند. فتبعته ووقفت خلف كتفه الأيسر تحدق بدورها وكأنها مفتاح السر. كانت لوحة جرداء وتبدو السماء شاحبة في أعلاها بخطوط زرقاء باهتة وكأن النيل داهمها على عجل. وفي أقصى الشمال عين تنبثق من السماء وتشرف على الحياة بشفقة. أسفل اللوحة شيء يشبه آلة موسيقية

(*) لوحة العبث والطاووس للفنان حامد ندا.

لم تعد تصدر منها الأصوات، يقف فوقها ديك يحاول الطيران. وبأسفل الآلة الموسيقية، عين مرسومة بعناية بأزرق يشبه كحل النسوة من الصعيد. عين ميتة بلا روح.

يسير آكل النمل في اليمين بهدوء ولا وجود لنمل في طريقه. وأعلاه تنام سيدة ممتلئة الفخذين ذات مؤخرة مثيرة، وصدر صغير يشبه ثمرتي الليمون. عارية، تستحم بضوء شمس غير مرئي ولا تكترث لشيء. بجوارها امرأة طويلة نحيفة، جافة العود. قسمتها الرغبة من الخصر بالغ الرقة وامتدت ذراعاها على الرمال وساقاها منفرجتان. وبينما يقبع فوقها طاووس عملاق طويل الذيل ويلتهمها بمنقاره الكبير، انعكس ظله صغيرًا كدجاجة فوق الرمال. وفي عمق اللوحة، أسفل السماء، بيوت بعيدة، لا تدري شيئًا عن هذه البقعة من العالم.

قبل أن تشيح هناء بنظرها، لمحت فراشة شاحبة كرماد حريق تطير بجانب رأس الديك، فاشتدّ ثقل الجفون الملتهبة ورأت نارًا تشب في آكل النمل والدخان الأسود يتطاير، وينتشر حول السحب الكثيفة، ساحبا إياها إلى الأسفل لتهطل الأمطار. في تلك اللحظة، تصاعدت موسيقى من الآلة بالتدريج، حتى صمت الآذان. سحبت الطاولة الحديدية ورفعتها بسرعة، وهوت بها على رأس زوجها بعنف. تبعتها بعدة ضربات بعد سقوطه أرضًا.

وقفت المرأة دون اندهاش، وقامتا بسحب الجثة معًا إلى داخل جوف الباب القصير، ثم أغلقتا الباب بقفل ثقيل. ثم غرقا معا فوق السجادة التي كادت تتشبع بالدماء، ويدا هناء تعصرا نهديّ المرأة كثمرتي ليمون، وتتأوه بشراسة.

الرأس الذي كُشِفَ غطاؤه

جاءتني يدٌ بعود أخضر طويل، كشجرة صغيرة تشبه عود "الشَّبَت" على جانبيها براعم. تذكرت ورودًا زرعتها حين كنت طفلا، كانت تزهر لأسبوع فحسب ثم تذبل وتموت. طالت الشـجرة فجأة. وصارت ضخمة حتى لامسـت السحب بأطرافها، وتفتحت البراعم. هطلت السماء في النهاية. كان كل شيء رائقا تماما. وامتزجت حبات المطر بسيمفونية كونية انبعثت من كل مكان. فلوَّحتُ بالشـجرة وداعبت المطر مراهنا على ساقها القوية التي لن تثنيها الرياح.

أيقظتنـي حركة الرأس الصاخبة. كان يقفز بجانبي لأعلى وأسـفل في مرح بينما المطر في الخارج ينهمر بشدة. تطرق قطراته على نافذتي في رتابة. تَمَطَّيْتُ والموسـيقى لا تزال تتردد في أذني. حين انشغلت عن الرأس، هدأ صخبُه وتدحرج مستقرا بجانبي. ثم نظر لي متسائلا إن كنت سأخرج الليلة، لم أجب وأشرت بصمت للسـماء. فسـكن تماما. أغمض عينيه وانتظمت أنفاسه.

نحيت الأغطية جانبا ونهضت لأفتح النافذة بعد توقف المطر. النافذة تطل على ميدان صغير يتوسط الحي القديم، في وسطه نافورة لا تعمل، مغمورة الآن بالمياه والأتربة، والقمامات تسبح مزاحمة. يجلس عبد العاطي على حافتها، وقبالته سيد جوخة. يتبادلان "جوينت" في هدوء. هز عبد العاطي إصبعيه اللذين يضمان السيجارة في حركات دائرية متصاعدة. ثم أطلق الدخان في الهواء وأطبق فمه. أظن أن إبقاء الفم مغلق مع ارتفاع رأسينا، هو ما يمنع الروح من الرحيل. إذا ترك عبد العاطي فكه الأسفل للجاذبية، قد يحلق بحرية مثل دخانه الأزرق.

سار سيد جوخة فتعلق عبد العاطي برقبته، وكأنه متكئٌ على عصا. كان عبد العاطي طويلا، له رأس مربع وشعر أشعث. يرتدي تي شيرت أخضر في الصيف، رافعا كميه القصيرين حتى كتفيه. يظهر أسفلهما ذراعيه الهزيلتين. يبقى بالفانلة حين يغسلهما. وفي الشتاء يزيده بسترة سوداء باهتة. لم يعد يعرفه أحد. كبر الأطفال وتوقفوا عن العدو في الشوارع لمشاهدة موكبه.

أغلقت النافذة وارتديت سترتي السوداء الشاحبة. حرصت على التحرك بهدوء حتى لا أوقظ الرأس النائم. لقد اعتدت وجوده في الحجرة، وآلفت التحدث إليه بصوت مرتفع، بالرغم من أنه لا يتكلم. تَكَوَّنَ لديَّ شعور أنه سينطق قريبا بعد امتصاص كل المفردات مثل الأطفال.

كان يوما حارا حين سمعت صوتا غريبا في دولابي، والعرق كان غزيرا فوق جبيني والصهد شـديدا. في البداية ظننته فأرا متسـللا، لكن عندما فتحـت الدولاب، وجدتُ رأسًـا جاحظ العينين يحـدق فيَّ من الداخل. كان خائفـا وينظر إليَّ في ذعر واللعاب يسـيل من فمه. ترويت قليلا وأنا أحك جبيني بظهر يدي، متسائلا: من ترك رأسه في دولابي هكذا؟ بدأت أفتش عن الجسد في كل مكان. وعندما لم أتوصل لشيء قلت له بوضوح: إذا أردت البقاء فلتبقَ، أما إذا وجدت جسدك فلترحل؛ لأني لن أتحملكما معا. تخلّى عن قلقه وقفز حولي متبسـما ثم لعق قدميّ. فكرت في نفسي أني لطالما رغبت في شراء حيوان صغير، لم يخطر ببالي قط إمكانية صحبة رأس إنسان أليف.

انتبه الرأس لحركتي فتدحرج إليَّ. أخبرته: بأني ذاهب لاحتساء الشاي مع عبد العاطي بالمقهى. تهللت أساريره فَرَبَّتُّ على شعره القصير.

تبادلت الحديث مع عبد العاطي عدة مرات قبل دخوله السجن. حتى أني دعوته مرارا لزيارتي بحجرتي الصغيرة. لفتت انتباهه كتبُ الشعر المرصوصة بجانب فراشي. فأخبرته أنها كل ما بقى من زمن مضى. هزّ رأسـه المربع، وهرش شعره الأشعث قليلا ولم يرد. لكننا توقفنا عن الحديث بعد عودته. سمعت أنه واجه اغتصابًا ما بالسجن، فانسحبتُ بلطف. انشغل هو بأسر الدخان الأزرق، بينما أهدهد أنا رأسًا مذعورًا بلا جسد.

يستحق الأمر العناء. فعبد العاطي صديق قديم يعرف كيف يكسر ملل الليالي الباردة. رغبَ الرأسُ في صحبتي. تدحرج نحو الباب ورفض الابتعاد حين أمرته. كان الاستسلام هو الحل، وإلا سأقضي الليل بجواره.

توقفنا بمدخل البيت، أرهف السمع. لا صوت سوى دويّ الرياح. أحكمت سترتي على صدري وتابعت طريقي. وبجانبي الرأس يقفز على الرصيف. فاض ماء النافورة بعد عصف الرياح بالأتربة الطافية فوقها، فَنَزَحَتْ للأطراف تسابقُها القمامات، تاركةً الماء صافيًا بالمنتصف.

خطوت على أطراف أصابعي كلاعب باليه. أقفز من حين لآخر لأتفادى البرك الموحلة. أضع يديّ بجيبيّ طالبا دفئا عزيزا، متسللا بأصابعي عبر ثقوب سوداء لجيوب الآخرين، عَلَّنِي أجد عدة جنيهات أو مكسرات مملحة تؤنس طريقي. عثرت على بضع أصابع من الطباشير الأبيض وبقايا أظافر عارية من الطلاء. وقلنسوة صغيرة حشرت الرأس بها. ألقيت الأظافر واحتفظت بالطباشير. وفي جيبي الآخر استطعتُ التسللَ لجيبٍ به مطواة صغيرة وكشاف يد.

معًا انعطفنا يمينًا لشارع طويل وضيق. والرأس يقفز حولي. تتراص البيوت المتهالكة على الجانبين، قديمة ومثيرة للشفقة. كانت كأجساد قصيرة عجوز لاعها الحزن من ثقل الانتظار. أمسكتُ الرأسَ ورفعتُه لأعلى أمام صدري. وأشرتُ له نحو بيتٍ يحتلُّ ناصية، على وَاجِهَتِهِ مصباحٌ

"سهاري". كانت طوابقه مضطربة. أكلت الوساوس نوافذه العريضة، وأجهدت السُّنونُ طوباتِه.

حَلَّقَتْ فوق رأسي كلماتٌ مبعثرة لبيتِ شعر قرأته منذ أيام. فاقتربتُ من البيت والأفكار تزاحمني. وضعت الرأس أرضا ومسكتُ الطباشير. كتبت على الطلاء الأصفر المتهالك متشككا في قدرة ذاكرتي المثقوبة "أعوذ بك أن تمسك أي لوعة ويوسوس لك الوسواس مطرح ما تكون".

ازداد الشارع ضيقا واشتدَّتْ الظلمة. لم أعد أرى وقع خطواتي. وابتعد عني الرأس يقفز بالقرب من جدران البيوت باحثا عن أرض جافة يتدحرج فوقها. تركت لحذائي الأمر. تحمَّل رعونتي وأنا أخطو في ماء المطر. سيلعق الوحلَ بلسانه القصير كقط حين أنتهي. فحذائي يعرفني، يربت على أصابع قدمي المتوترة. يترك لها المساحة لتنكمش وتتمدد في ترقُّب. كيف سيتقبلني عبد العاطي؟

أهانته لوعة الضيق بالسجن. لم يكن سوى صعلوك صغير، يقف على النواصي وسط الدخان الأزرق الدائري الذي يتداخل لأنفه. يحفظ الشتائم القذرة ليضايق البنات. كان صاخبا فحسب كصخرة تتلوى أمعاؤها، فتتقيأ حممًا بركانية تزعج الجميع. لم يكن إلا طفلًا في حاجة إلى من يلقي الشعر على مسامعه.

انعطفتُ يسـارًا حيث الزريبة الكبيرة. وحده خوار ثور ساهر حزين يشـاركني أفكاري. ربما جزع أيضا. حلقـت الكلمات مجددًا فوق رأسي. اقتربت من الحائط لأكتب بيت الشـعر من جديد. كان الشـعر هذه المرة أكثر وضوحا. أمسكت الطباشير وكتبت "أعوذ من الوساوس أن تمسك بك لوعة مطرح ما تكون".

على مقربة مني، على بُعد عدة أمتار قليلة، يقف شبح ضخم أسود يتأمل الحائط. تحسست مطواتي الصغيرة بحذر، فلم أجدها. مارست تسللي لجيوبٍ أخرى. وضع الشبح الأسود يده بجيبه أيضا. لمست أصابعي أصابعَ دافئةً متسللة، فانسحبت سريعا. نظرت حولي باحثا عن الرأس. كان يقفز بالقرب من الشبح. فكرت ربما كان صديقا لجسده يوما ما. وأن هذه المغامرة الليلية المباغتة كانت سببا في معرفة أصل الرأس.

ابتعدت عن الحائط ومشـيت قليلا. اقتربـت قفزات الرأس مني مرة أخرى. نظرت خلفي فجأة، فوجدت الشبح يسير ورائي.

وقفت...

فوقف.

مشيت...

فمشي.

هل يتبع الرأس أم يتبعني؟ هل لديه ثقوب في جيبه أيضا وتسلل منها إليّ سارقا مطواتي؟ اقتربتُ من الرأس لأحمله، لكنه ابتعد عني بخفة. لم أتبين تعابير ملامحه جيدا. لا أعرف إن كان فرحا بالرفيق الجديد أم لا. أهملته، وفكرت في أنه إن كان خائفا فسيأتي بالقرب من قدميّ. لكن مرت بي وساوسي. أعَرَفَ عبد العاطي أني في طريقي إليه، وأراد المزاح معي؟ على أي حال لست قلقا. أنا صديق قديم يريد كوبا من الشاي الساخن في تلك الليلة الباردة فحسب.

وقفت مرة أخرى لأنظر للرأس. فكرت أنها قد تكون النظرة الأخيرة قبل الوداع. ثم واصلت المشي حائرا لا أجد تفسيرا لرفض الرأس لي. فمنذ أن وجدته بالدولاب ونحن حريصان على بعضنا البعض. ظننت أنه يحبني.

لاحظت بعد قليل أن الشبح يحافظ على ثبات المسافة بيننا. اقتربت من الحائط، فاقترب كذلك. لم أحاول محادثته، بقائي مع الرأس لفترة طويلة علمني التواصل بدون كلام. كان الأمر كما لو أني أنظر في مرآةٍ ضخمة. شبح أسود ضخم كهيئتي ويرتدي سترة سوداء شاحبة.

دخلت السوق الكبير. تسلل ضوء ضعيف من متجر ساهر. غمرني الضوء بينما ظل الشبح في ظلال البيوت. يتكسر الضوء على سترته ولا يصل لوجهه. والرأس يقفز جيئة وذهابا بيننا. أسرعت الخطى وانعطفت يمينا

ثم يسارا مرة أخرى اختصارا للطريق كغرزة سريعة بين طيات ثوب.

الشارع هنا أكثر رحابة. يقطعه بالنهاية طريق عريض على ناصيته سنترال الحي. الشبح الأسود يتبعني والرأس يلعب في المنعطفات. اعتدت في المواقف التي لا يمكن التحكم فيها التظاهر بعدم الاهتمام. لذلك تجاهلتهما عندما أدركت أن ثمة لعبة ما تُنسج وراء ظهري. بينما تبحث أصابعي عن مطواة بجيبي. تبعثرت فوق رأسي حروف كلمة "تبريح"، لقد سقطت من البيت الذي كتبته. زاد توتري. تداخلت الكلمات برأسي، فلم أعد أتذكرها. كما انصهرت ملامح الرأس، حاولت التركيز، كيف كانت أنفه؟ لطالما اعتقدت أن الأنف هي أهم عضو في الوجه؛ لأنها مَرْكَزُه.

وقفت بجانب سور السنترال والطباشيرة بيدي. أدبر مكانًا لتبريح التي سقطت من ذاكرتي. يقترب الشبح من الحائط أيضا. تُرى هل وجد مكانا لهـا؟. وقفت قليلا أنظر للحائط وأنف الرأس يتراقص بين جفوني. كنت موشكا على الجنون، وقررت مشاركتهما اللعب لتهدأ وساوسي.

مددت ذراعيَّ أمامي مستندا إلى الحائط. ثم اندفعت جريا للوراء ورفعتهما لأعلى. فعل الشبح مثلما فعلت تماما. جريت عائدا للحائط. فعاد. كررت ما فعلته عدة مرات وزدت من سرعتي حتى أني لم أعد قادرا على التنفس، فجلست على الرصيف لاهثا وتتقاطع ضحكاتي من بين أنفاسي. ضحكنا معًا وتمايلنا. تمـددت الحروف بيننا كموجة صوتية تهتـز برفق مع الرياح

وترتج كلما صخبنا. والرأس يقفز بيننا ككرة لعوب.

انعطفنا يمينا مع سور السنترال والرأس يسبقنا قافزا في خطوات واسعة. ظهرت الساحة الخارجية حيث يقضي عبد العاطي لياليه. هادئة، خالية من أي مقهى. وقفت بالمنتصف حائرا هارشا رأسي المربع. وقف الشبح أمامي فانسل الضوء لوجهه. كان عبد العاطي نفسه، ممسكا بيده طباشيرة بيضاء وبيده الأخرى عودا أخضر طويلا. سكنتُ برهةً. ثم نظرتُ لصدري العريض ورأيت تي شيرتا أخضر أسفل سترتي السوداء الباهتة. سكن الرأس بيننا. وتجلى بجانبه جسدٌ قصيرٌ منحنٍ للأمام، فالتحم الرأس معه. عادت نظرته المذعورة ولعابه السائل على الأرض. وقف خلفه رجلٌ ضخمٌ مُدْخِلًا عضوه في مؤخرته بانتشاء وعنف. تناثرت وساوسي في الهواء وسقطت فوق جسد المُغْتَصِب كسكاكين صغيرةٍ. رفع ذراعه بسرعة ليحمي رأسه، فانفلت عضوه. لم يتردد صاحبُ الرأس، نهض وجرى مسرعا. كان مشهدا باهتا، استمر في البهتان حتى تلاشى، واختفى تماما. بقيت بمفردي مع نفسي، شعرت بها رغم أني لم أستطع رفع رأسي لأرى بوضوح. دارت الأرض تحت قدمينا ورجف جسدي.

طافت عيناي في الهواء غير عابئة بمجال رؤيتها. واصطفت أسناني كرصيف حجري، وضروسي سُلَّمًا. أنا بجانبي. نصعد السلم المرتفع. من شرفة كبيرة بنهايته، نرى جسدينا داخل جسد طفل يحمل الرأس الأليف.

طفل حليق قسماته مطمئنة، يرتدي جلبابًا أحمر كالرهبان البوذيين. ويدور منتشيا فوق نهر. يداه ممدودتان لأعلى في سـعادة، مستقبلا أوراق شجر متساقطة من السماء. وكلمات مبعثرة تدور حوله. قرأناها جميعا معا بصوت جهوري:

"أُعِيـذُكَ أنْ تُمْنَـى بِتَبْرِيـحِ لوعةٍ   وأن تعرفَ الوسواسَ كيف يكونُ(*)"

(*) بيت للشاعر إبراهيم المازني.

حصاد السافانا

كان على منصور التسـلل مرة أخرى في طريقه للعودة، ولم تكن بنفس صعوبة الرحيل، إنما أشـبه بالعوم مع تيار شـديد في ليلة مقمرة. الطريق أقصر، السحب أقرب والصحراء أقل اتساعًا ورمالها مطفأة شحيحة، لا تعكس الكثير من نور السماء.

كان قد اتفق على تسوية جيدة مع مديره، حين وصلته الأخبار الأخيرة عن اشـتداد مرض أبيه. لكنه في النهاية حسم تردده واضطر إلى الرجوع، وكان يظـن أنه لن يحدث أبدًا. كان يدرك أنه أصبح وحده مسـؤولاً عن أخـين صغيرين. تذكر هيئتهما وبصق ترابًـا صحراويًا لم يلبث أن عاد إلى عينيه وأنفه، فالزوبعات مصاحبة له طوال الطريق.

دخل القرية لا يعرفه أحد، وإن كانوا يلوكون سيرته من حين إلى آخر. تمكـن من تذكُّر طريق البيـت الذي تركه كهفًا مسـقوفًا بالصفيح. المعالم تبدلت، فالعشش الخشبية انهارت وتحوَّل بعضها إلى بيوت صغيرة مزودة بدكاكين لا تبيع شيئًا. وقف قليلاً أمام الباب وحلقه الجاف يخمشه التراب

الأصفر. كان الزير ما يزال في مكانه القديم، فنهل منه الماء، ثم تجشأ وطرق الباب.

لم يتوقـع أخواه قدومـه بالفعل، لذلـك لم يكترث فؤاد لعزم سـامي مراسـلته بشـأن احتضار والدهم، لكنه لم يُخفِ اندهاشـه حين رآه، حتى أنه احتضنه باشـتياق بدا له حقيقيًا. كانا قد عادا لتوِّهما من المقابر ومعهما النسوة مُتَّشِحات بسواد باهت، والرجال مطرقون بما يليق بالمناسبة. سار بينهم كأقرب غريب عرفوه يومًا، منصور نفسـه لم يشعر بالألفة نحوهم، لكنه رحَّب بنظراتهم الممتنة له. بطل فتح لهم أبوابًا ثابتة حين تسـلل عبر الصحراء لأول مرة منذ سـنوات. جلس وسـطهم، ومن زاويته بالردهة راقب أخويه. لم يعتقد أنهما قد شـبَّا هكـذا. طال فؤاد وصار ضخمًا مثله، على عكس سامي الذي بقي ضعيف البنية.

ظل يلعق سـقف حلقه بلسانه طوال العزاء، كان الترابُ الصحراوي ما زال عالقًا هناك، رغم الماء الكثير والبصق. لم يتوقع الناس عزاءً تقليديًا، خصوصًا بعد قدوم منصور، فترقبوا حديثه، لكنه لم يتكلم أو يُشِر لأي شيء. لم يكـن محبًا لصحبة الناس، وزادته الغربة عُزلة، كما أن اجترار الذكريات فكرة مثيرة لغثيانه.

أرض القرية الترابية أبقت جراح حلقه مفتوحة، وجعلته لا يكف عن لعقها بطرف لسانه. كان يرى التراب والدخان في كل مكان حوله، والبيوت

الرمادية العفنة تلاحقه. لم يرَها هكذا قديمًا، لكنه حين خرج لبلاد أخرى ملونة أدرك مدى عمق الرماد المصاحب لها.

انتهى العزاء وانـصرف الجميع أخيرًا. فأغلق منصـور الباب وتعمَّد إغلاق غرفة والده كذلك، كأنه يهرب من ذكراه ويتنصَّل من الحزن. تزداد الحياة التباسًا هنا، كأنها سلاسل متصلة لخيط وسط نسيج مُعقَّد. حين رحل كان ينوي العـودة، لكن في كل يوم صحا فيه هناك، بعيدًا، كان يدرك أن نيته لم تكن صادقة بشكل كافٍ لتكون وعدًا حتى لنفسه. فاكتفى بإرسال ما بقي منه ليسكِّن صوته الداخلي من وقت لآخر.

جلس متوسـطًا أخويه مشحونًا بخيالاته. يسـألهما عن أحوالهما. كان فؤاد يرد باقتضاب بينما انطلق سـامي في الحديث. وبعد جلسات مصغرة بينهم قال لهما إنه لن يضره شيء إن رحلا معه.

تـردد فؤاد في قراره، في الوقت الذي حسـم سـامي موقفه وأعلن أنه سيرحل مع منصور. لم يتبق لهما شيء في القرية، فلا أهل مقربون ولا حب مرتقب ولا سماء يتطلعان إليها، سوى دخان ثقيل يحوم حول رأسيهما.

بـدأ منصور في إعداد كل شيء لعبور الصحراء والتسـلل عبر الحدود من جديد. كان الأمر ثقيلاً على نفسه هذه المرة أكثر من قبل، ففي البداية غامر مُفعمًا برغبة قوية في نفض يأس حمله بين ذراعيه، فكان يتسـاقط منه

مع كل خطوة يخطوها في الاتجاه الآخر. عاد خفيفًا، لكنه الآن بدأ يشعر بوطأة الثقل تعود ثانية.

زاد الثقل مع مقاومة المسؤولين لـ"ظاهرة التسلل"، كما يطلقون عليها من كل منابرهم. كانوا قد تحكموا بالفعل منذ زمن بالحدود البحرية وأغلقوا الشواطئ أمام الناس تمامًا، حتى أنهم منعوهم في بعض المناطق من رؤية البحر نفسه. فكانوا يجلسون بجانب الجدران المرتفعة يستمعون لصوت الأمواج. وأصبحوا خبراء على دراية بأحوال البحر من صوته فحسب. وتطور الأمر معهم، فاستعاضوا بأسماء أصواته عن رؤية أمواجه ومشاهدة الزبد يجري فوق ساحله. كانوا يخبرون بعضهم بعضًا أن البحر ملتجا(*) اليوم، أو قد تسمع أحدهم يقول بلا اكتراث إن البحر تكوس(**) هذا الصباح، أو من المنتظر أن يغطغط(***) البحر كثيرًا هذا الموسم. يتظاهرون بمعرفتهم الكاملة عن أحواله وتقلباته، ويصحبون الصيادين المحظوظين بامتيازاتهم في جلساتهم، ليؤكدوا لأنفسهم أنهم لم يفُتهم شيء وأن الجدران لم تنجح في فصلهم عن الحياة.

إغلاق الحدود البحرية لم يكن بصعوبة إغلاق الصحارى بدروبها وممراتها وجبالها، وإن كان بقي بعض نقاط الفرار القليلة على السواحل، إلا أن نقاط

(*) اضطراب.
(**) جعل أعلاه أسفله.
(***) علت أمواجه.

الهروب في الصحراء ستكون أكثر، خصوصًا بوجود أبناء القبائل القديمة الذين ما زالوا يعرفون أسرارها جيدًا. لكن للمسـؤولين هنا دومًا حلولاً وضوابط غير مطروقة، كمفاجآت حياتية تصدمك بوجهك.

كل ما كان عليهم هو إبقاء كل من هو على هذه الأرض بالداخل. لذلك كانت خطة حقول السافانا والغابات الكثيفة خطة صالحة ومطروحة بقوة على موائدهم المستديرة. من يصدق نزع حقول وأشجار وحيوانات وحياة كاملة من مكانها لغرسها في مكان آخر بعيد، كشريط حدودي عميق لمنع التسلل وتعقيده. بدا الأمر جنونًا كاملاً متوافقًا بلا ريب مع رداءة كل شيء هنـا. وبدأ الحديث عن غابة لم توجد بعد، لكن لأن المسـؤولين يريدونها بشدة فلا شيء قد يمنعها من الوجود.

لم يكد منصور يبدأ في الإجراءات والترتيبات بالفعل لرحيلهم جميعًا، حتى بدأت الصفقات، وسرعان ما جاءت حقول السافانا واستقرت بموطنها الجديد. تابع منصور وأخواه كل مستجد، كان يبصق التراب ويباشر الأمر مـع المهربين. عرف أن الفخ نُصب بإحكام حولـه، وأنه وقع بالفعل منذ أن فكر في عودته. لم يواسِه تسلل الكثيرين بعد نجاحه، أو انضمام آخرين للزحام أمام بيته ما بين مستحٍ وصفيق، يسألون عن كيفية الرحيل معه.

وبذلـك بدؤوا يدفعونه رويـدًا رويدًا ليكون وكيلهـم أمام المهربين، والمتحدث باسـمهم، والباحث عن حلول لعبور حقول السافانا والنجاة

من حيواناتها المفترسة. لم يظن منصور أن موت أبيه قد يخفي له حياة كهذه، لكنه فكَّر أنه في النهاية مضطر إلى خوض كل تلك المشقة لإنقاذ نفسه وأخويه قبل كل شيء.

قدَّم المُهرِّب حلاً لم يبدُ مقنعًا لأحد، لكنه سمعه من أحد صيادي السنوريات، عرضه على منصور وقال إنه ليس أمامه طريق آخر. فأعلن منصور بعد مشاورات ومشادات أنه مستعد ليكون أول المُجرِّبين في مقابل أن يعبر أخواه الحقول دون مقابل. بصق المُهرِّب ومضغ التبغ بأسنانه الأمامية ثم قال:

- فقط إن نجحت في العبور سالمًا.

وافق منصور ومضى لحجرته دون كلام، وعندما صعد إليه سامي في المساء حاول مواساته لكنه عبّر عن قلقه من الخسارة. فبصق منصور قائلا إن الخسارات جميعها بنات زواني.

انتقلوا للبلدة الصغيرة على مشارف الغابات الجديدة، بلدة كانت دومًا مقصدًا للمتسللين في لياليهم الأخيرة هنا. انتشروا في فنادقها الفقيرة على دفعات حتى لا يلفتوا الانتباه. كانت المغامرة عظيمة هذه المرة، أعظم من عبور رمال الصحراء الجافة بصحبة البدو الرُّحَّل، والانعطاف مع جبالها والشرب من آبارها وتجنب الذئاب والثعابين ولهيب الشمس.

صمتُ فؤاد فضَحَ رفضَه لمغامرة منصور، لكنه لم يحاول إثناءه عنها، لأنه يدرك تمامًا أنه لن يتراجع، كما لم يتراجع من قبل حين فرَّ من أبيهما وتركهما لحياة بعيدة. قديمًا، حين رحل منصور هكذا، شعر فؤاد باليُتْم أكثر مما شعر عندما ماتت أمه، وأكثر مما حزن حين زفر أبوه زفرته الأخيرة. لم يكن فؤاد قريبًا من أحد كما كان مع منصور، وكانا معًا حتى وقت متأخر يتسكعان على نواصي القرية، لكنه فوجئ كالجميع بأنها كانت ليلته الأخيرة. شق هذا صدره وزرع داخله حقدًا تجاهه لم يُشفَ منه قط.

أما سامي فكان حائرًا بين التوجُّس والحماس. إنه مثل أخويه لم يرَ غابة أو حقول سافانا، حتى أنه لا يتذكر تفوهه بكلمة تجمع ما بين حروف السين والفاء والنون من قبل. كما أنه -مثل الجميع كذلك- لم يشاهد أي حيوان مفترس في حياته. لكنه مأخوذ بشجاعة منصور وجرأته. كما رفعه هذا الموضع البطولة في وسط الجميع. إنه أخ لأول المتسللين عبر الصحاري وعبر غابات وحقول لا يعرفون عنها شيئًا. فتأكدت مكانته بين جموع المتسللين المرتقبين، أصبحوا يتركون له مكانًا في جلساتهم ويهتمون بحضوره ويقدمون له الشاي الصحراوي اللذيذ ويصمتون حين يتحدث. كان يتصنَّع الحكمة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يحاول أن يكون خفيف الظل، لكنه لم يعرف أبدًا هل يضحكون لأنه مضحك فعلاً أم احترام لمنزلته الجديدة وسطهم فحسب. حاول ألا يهتم لكنه فشل، وأخذ يتقلب في

فراشـه طويلاً متسـائلاً إذا كان اليوم قال نكتته بـذكاء أم أنه أخفق وبدا كأحمق، مجرد أخ أحمق للبطل الحقيقي.

كان النهار ما زال باكرًا حين وصل الصيادون. انقلبت البلدة أمام جيفة أسـد هائل الحجم، كان محملاً على سيارة مكشـوفة من سياراتهم. عرف منصور ما عليه فعله، وهو ارتداء جلد الأسـد بعد سـلخه فوق جسده، وحشر رأسـه داخل دماغ الحيوان، سـيُنزِلونه على حدود حقول السافانا ويتركونه ليواجه مصيره. ومن هناك ينطلق عابرًا الحقول، ماشيًا على أربع لمدة يومين، وإذا حالفه الحظ قد يتمكن من الإسراع ويصل في يوم ونصف فقـط. كان عليه الدخول بالجلد طازجًـا قبل تعفُّنه وجفافه، لتظل رائحة الحيوان فيه ويضلل الحيوانات الأخرى.

وقف فؤاد وسـامي في مقدمة الجمع يودعانه، بينما رمقهما منصور من دماغ الأسد بنظرة غامضة، وتمتم "اعبرا في أثري".

أشـاح فؤاد بنظره نحو الأفق ولم يرد سامي. كان منصور ضخمًا لكنه بدا هزيلاً داخل هيئة الأسـد العملاق. مشى على أربع متوجهًا للسيارة، والسـائق خلف عجلة القيادة يشـير إليه بالإسراع، فقفـز داخل صالون السيارة الخلفي، وابتعدا وزوبعة ترابية تلاحقهما.

وسط مساحة هائلة من سهول السافانا، تمطعت اللبؤات بدلال وأشبالها

تمرح حولها. بينما استرخت الأسـود على ظهورها. الأشجار قليلة حولها لكنهـا تفي بالغرض، يقف فوقها بعض النسـور وحـداءات. وفي الأفق تزمْزم الحمير الوحشية بجانب الجاموس البري.

لا تبتعد الحيوانات عن تلك المساحة، لأن لا حياة لها خارجها. فكلما توجهت شمالاً أو جنوبًا أو شرقًا أو غربًا، وكلما ابتعدت أكثر، لا تجد سوى رمال صحراوية جافة. فكانت السافانا كواحة مفترسة وسط قحط.

تقدمت لبؤة وردية الأنف زمرتها نحو بركة الماء، وانهالت تشرب بحرص خوفًا من التماسـيح. في الجوار، على مقربة منها بعدة أمتار، يسـير منصور مترنحًا، ولبدته منفوشة حول رأسه. نظرت إليه اللبؤات بأنصاف أعين، لكنهـا لم تتخذ ضـده أي إجراء، بدَت لـ منصور أنها تميل للاسـترخاء في هذا الصباح المشمس. فأسرع من خطواته مهتديًا بالشمس كما فعل كثيرًا كلـما ضل طريقه في مكان ما. كان يعرف أماكن الآبار جيدًا، يذهب إليها مسترشدًا بالنجوم، كما تعلم من البدو الذين قابلهم في رحلاته. لكنه تمكن من تقسـيم ما معه من ماء وطعام ليكفيه لثلاثة أيام تحسُّـبًا لأي تأخير في تلك الغابة. كان في حوزته ملابس كذلك، ربطها حول بطنه داخل كيس بلاسـتيكي حتى لا تتسخ بدماء الحيوان ولا تتأثر برائحته النتنة. كما علَّق سـكينًا صغيرًا وآخر أكبر حجمًا بجانب مؤنته حول وسـطه أيضًا. وبقي خفيفًا رغم ذلك يدفئه الجلد الساخن ويأخذ بتحذيرات أحد الصيادين،

لا ينظر في عين حيوان ولا يسرع الخطى. أمامه كانت الحقول منبسطة، ذهبية تتمايل الشمس فوقها. لم تكن تختلف كثيرًا عن رمال الصحراء اللامعة، لكن هنا الخطر متخفيًا بين الأعشاب الطويلة. فالصحاري رغم هيبتها لم تكن مخيفة لـ منصور كما هي السافانا.

في البلدة، لم ينم أحد بعد رحيل منصور. ولم يتبق لـ سامي أظافر أخرى ليقضمها. يفترش الجميع المقاهي القليلة المتناثرة في الأرجاء بانتظار رسالة تؤكد عبوره الحدود سالمًا ونجاح خطته. كان رجال المُهرِّب وراء الحدود مترقبين وصوله إليهم كذلك.

مر يومان حتى تلقوا رسالة بأنهم لم يعثروا على منصور بعد، ولا وجود لأثره على الحدود. اختفى ولم يصل ولم يعُد وأسف عليه الجميع. تذكره سامي في حديثهما الأخير معًا، وكيف بدا له يائسًا يبصق ويسب كثيرًا رغم حماسه لإنقاذ الجميع. لطالما رغب سامي بشدة في رؤيته محتدًا كفعل أخير يعيد إليه آدميته التي سلبها منه شعوره بأنه مميز. لكن حين قرر منصور العبور داخل جلد الأسد، عرف سامي أنه تجاوز حد البطولة منذ زمن، أدرك أنه حين تسلل وتمكَّن من إخراج رأسه من الوحل، وجد هناك ما قد لا يجده سامي أبدًا. بعد أيام قليلة من الحزن والتأرجح بين الخيبات أخبر سامي المُهرِّب أنه سيذهب وراء منصور بصحبة فؤاد، لعلهما يتمكنا من إنقاذه.

لم يصـدق فؤاد أن اختفاء منصور مجرد حادث، لم يصدق بطولاته منذ البداية. اعترض على مبادرة سـامي وقال إنه لن يذهب في أثر أحد. بهت سـامي لبعض الوقت، وفكر فيما مضى إليه فؤاد، وقد بدا له مقنعًا بعض الشيء. لكنه سأله ماذا سنفعل إن لم نعبر وراءه؟

انتظرا الصيادين أيامًا متتالية، وإمارات الإخفاق تخنق عنقيهما. وصل بعضهم أخيرًا وبصحبتهم جيفة ببر ضخم. كانوا سعداء بصيدهم وتباهوا به. فالنمور نادرة في الأسـاس ولا يجدها الصيادون بسهولة. قال المُهرِّب إن الببر مناسـب أكثر لـ فؤاد لطوله الفارع وضخامة هيئته، ثم أرسـل في طلبه. وانتظر سامي وصول الصيادين الآخرين بجيفة أخرى ليعبر السافانا مع أخيه.

قبل سلخ جلد الببر، ذهب فؤاد مع مجموعة من الشباب للمذبح السري ليراه. وقف صامتًا أمام جلال الجسد المسجىّ. الجميع يهللون في المذبح، يشـدون أطرافه المحتفظة بسخونتها ويجذبون الرأس من الأذن. أحدهم شدّ شعر شاربه بقوة ليحتفظ بشعرة منه.

إلا فؤاد، باقٍ على صمته. كان ينظر مليًا إلى الجلد المخطط الجميل للغاية. اقترب أخيرًا منه وتصدر المشـهد. تحسـس برفق الشعر القصير البرتقالي ولمـس ببطن يده رأسـه الكبير. حيوان مكتمل البهـاء لم يرَ في مثله اكتمالاً وتمامًا. صعد فوق طاولة السـلخ برويَّة ثم احتضنه وبكى بشدة. توقفت

الصيحات. وحاول الجزار إبعاده، لكنه تمالك نفسه ورفض الابتعاد.

التفت باحثًا عن المُهرِّب الذي كان ينظر إليه بتهكُّم، دفع له ما تمّ الاتفاق عليه من أجل اصطياد الحيوان، ثم طلب المساعدة لنقله للخارج. استأجر سيارة وابتعد عن البلدة. قيل إنه لم يعبر حقول السافانا أبدا، قيل إنه ابتاع كوخًا صغيرًا على حدود البلدة وتمكن بمساعدة البدو من تحنيط النمر ويعيش برفقته وحيدًا مهووسًا بكماله. لم يهتم سامي بالبحث عنه. كان يرغب في أن يبقى أخًا للبطل، وبطلاً تاليًا له، وفؤاد كان ليدمر كل هذا، لذلك تجاهل حكايته وأعلن في مجلسهم الليلي أن فؤاد حر لكنه سيكمل مشوار منصور للنهاية.

ازداد عدد المُهرِّبين وصياديهم ومتسلليهم. وتزايدت قوائم الانتظار، وأصبح لدى كل مُهرِّب بطل كـ منصور يُحكى عنه، لكنه بقي ألمعهم كأب روحي نموذجي. كان أكثرهم حظًا هو من يحصل على جلد اللبؤة، إنها ملكة بحق لا يعترضها أحد إطلاقًا إلا في مواسم التزاوج، يكون العبور بجلدها أكثر صعوبة، لأن المتسلل يكون مُعرَّضًا لاقتراب الأسود منه لإغرائه. أما من لم يدفئ جيوب المُهرِّبين بماله، ارتعدت مفاصله وهو يتسلل في جلد فهد أو قطط برية ضخمة.

عادت الظاهرة تنتشر من جديد. وعادت اجتماعات القُواد بالحجرات المغلقة. قالوا:

"نقضي على حقول السافانا ونُصفّي كل الحيوانات".

وقالوا:

"نعيدها لبلدانها الأصلية ونستعيد المال لفشل المشروع".

لكن في النهاية أعلنوا أنهم سيشترون جلود الحيوانات من الصيادين مباشرة بأموال طائلة، أكثر مما يدفع المتسلل للحصول عليه.

اجتمع المهربون مع الصيادين ليناقشوا القرارات الجديدة. لم يتوصلوا لحلول قاطعة. فالصيادون تجَّار كذلك، وجيوبهم متمردة دومًا، فبدأت حرب الصحاري. قطع المهربون طرق الصيادين، سرقوا الجيفات وهربوها لمذابح سرية ليحصلوا على الجلود ويرتديها المتسللون الذين لا يضمنون سلامة العبور، وزادهم غضب الصيادين الذين لم يترددوا في اصطيادهم وتركهم في السافانا فريسة للحيوانات الحقيقية.

كان على سامي التسلل وسط تلك الحرب الدائرة. تعاظم التوجس بداخله، كان قلِقًا من فكرة اصطياده فيصبح مصدرًا للتهكم. لم يسخروا من منصور لأن للأبطال دائمًا مساحة كبيرة في عقول محبيهم. أما هو، سامي، القصير، كثير الكلام والنكات، الذي فشلت مبادرته وهرب منه فؤاد وتدخل المسؤولون ليقضوا عليها، لم يكن في مأمن من التهكم، وليس بعيدًا جدًا عن النسيان. في ذلك الوقت حقد على منصور الذي عبر كأسد

وسط ظروف مواتية، جعلت من سيرته سيرة شعبية تلوكها الألسن في كل مكان، حتى إن فُقد أو هرب مثلما اعتقد أخوه، إلا أنه بقي. لكنه أيضًا فكّر وجذبته الفكرة، إذا تمكَّن من العبور في ظل هذه الحرب الدائرة فسيكون ألمع من أخيه وأشجع منه. كان يفكر في كل شيء عدا أنه يود أن يُنسى تمامًا الآن.

أثناء تردده زاد سعر جلد الحيوان، حتى أن جلود القطط البرية أصبحت تفوق سعر جلد الببر من قبل. لكن لم يمتنع المتسللون عن دفع الأموال على أمل إيجاد فرصة للعبور، ولم يتوقف المهربون عن قطع طرق الصيادين، ولم يكف المسؤولون عن عرض المزيد من أجل القضاء على الظاهرة.

حتى أصبحت المضاربات علانية. يبيع الصيادون الجلود للأعلى سعرًا أيًا كانت الجهة. احتدم السباق. ودفع المُهرب سامي دفعًا لحقول السافانا داخل جلد قطة برية، بعد أن كانا اتفقا على عبوره داخل جلد لبؤة. قال له المُهرِّب "إن لم تعبر الآن ربما لن تعبر أبدًا".

"كل هذه الأسود والنمور والفهود، كل تلك اللبؤات، وأتسلل في النهاية داخل قطة مذعورة؟! لكان حمارًا وحشيًا أكرم من هذا!"

لكنه انصاع كرهًا وأخذ بالنصيحة.

وسط تلك الهيستيريا الجماعية زاد عدد المتسللين الحمقى، وأصبح من

المألوف رؤية أسد يسير على قائميه الخلفيين فقط ولبدته منفوشة في الهواء. بعضهم طاردهم الأسود واللبؤات ولم ينجوا من مخالبهم.

لم يتابع أحد خبر سامي الذي سار تائهًا في السافانا في كل الاتجاهات وترك جلد القطة ثم توجَّه إلى سفح جبل كان يسد الأفق أمامه، وبقي عالقًا هناك. لم يعرف أن المصارف وضعت بندًا لأسعار جلود الحيوانات بجانب أسعار العملات الأجنبية، وأن المستثمرين ضاربوا في البورصة القومية، كان سعر جلد اللبؤة هو الأعلى، يليها جلد الببر، فتسابق الصيادون يتجولون شرقًا وغربًا للإيقاع بفرائسهم الأعلى سعرًا.

لكنه كان يراقب حقول السافانا من مكمنه في كهف في بطن الجبل. كانت الحمير الوحشية ما تزال تزمزم باطمئنان بجانب الجاموس البري. لا يهددها خطر سوى احتمال وجود تماسيح لم ترها بعد في البرك الصغيرة. لأن اللبؤات لم تعد تتمطع بدلال فوق العشب ولم يعد للأشبال وجود.

آخر أيام الخطيئة

1

اعتاد سعيد مراقبة المنتظرين من موقعه بالطابور حيث يتسلى بتخمين الحجرة المناسبة لكل منهم. أحدهم استلم نتيجته متوجسًا ووقف في انتظار دخوله للطرقة الطويلة. كانت الوجوه مكفهرة من حوله، باعثة على التجهم، لكنه لم يكن خائفًا. شعر بأنه سيتمكن من التخفف من الثقل حين يسلم أوراقه.

في وسط القاعة وقف رئيس المراقبين، يتفحص الجميع ويتأكد من سير العمل كما ينبغي. تتراص المقاعد بشكل دائري، دائرة داخل الأخرى. حيث الجميع في مواجهة الجميع. لا خصوصية لأحد هنا، فلا قيمة للتواري عن الأعين المحدقة. في الحقيقة، لا قيمة للتحديق كذلك.

وصل سـعيد أخيرًا للشـباك الصغير، قدم أوراقه في صمت ثم توجه لأقـرب مقعـد في انتظار النتيجـة. طال ترقبه، حتـى أن معظم من حوله توجهـوا للحجرات الخاصة بهم، وانتهى بعضهم من العقاب ومضوا في طريقهم. ظل وجه سعيد هادئًا، وجه ملائكي رجولي لا يخفي وراءه شيئًا. كان يعرف أنه سينتظر أكثر من الجميع في هذه المرة، فقرار الصفح لن يكون أبدًا بسهولة الإدانة.

الردهة الدائرية الضخمة شبه خالية، فلقد انتهت طوابير اليوم. طلاؤها الأبيـض ناصع كأنه مطلي لتوِّه. قديمًا كان عليهم قضاء الكثير من الوقت في انتظار النتيجة. لكن النظام استطاع اختصار ساعات الانتظار الطويلة، واعتمد صيغة جديدة لاستمارات صُمِّمَت لتسهيل الأمر على المُحكّمين، فيسـهل الفرز والعقاب. ليس عليهم سـوى ملء الاسـتمارات بصدق، والإشارة للخطأ المقترف بعلامة صح ثم تقديمها.

في أقصى يسار الردهة طرقة جانبية عريضة يغلقها مصراعا باب كبير. يتفرع منها عدة طرقات تؤدي إلى حجرات العقاب. يعرف سـعيد المكان جيـدًا، كل من في البلدة يعرفونـه، وتقريبًا تلقوا عقابهم في كل الحجرات الموجودة بالتناوب. يأتون كل عام واسـتماراتهم ملأى باعترافاتهم بخط يدهم. بعد توالي السـنوات وخبرة النظام بخطاياهم، عدَّلوا الاستمارات لتشمل كل ما يمكن تخيله من أخطاء.

طالت جلسة سعيد في الردهة، حتى أنه أوشك أن يكون الوحيد من منتظري العقاب. فمال برأسه لأعلى متأملاً السقف. كان زاخرًا بنقوش الطاهرين الذين نجوا بعد الموت لنقاء نفوسهم. يطيرون في سماء بلا أجنحة، والابتسامات الهانئة تزين شفاهم. حجرات العقاب مرسومة بعناية على الحواف، وأبوابها مفتوحة. ورغم أنه تأمل الرسم هذا عشرات المرات، لكنه لأول مرة يدرك أن تلك الأبواب هي مخارج مضمونة لنعيم الطائرين.

حاول تخيل مصيره بعد الموت وهو من قرر ألا يعبر للفردوس من تلك الأبواب. فكر أنه من الممكن فتح باب جديد غير مرتبط بالألم والعقاب، باب خاص به ولمن يتحمل من بعده. فكر كثيرًا فيمن سبقوه إلى هناك دون عقاب مسبق، الناس من الأرض الثانية مثلاً، أمه التي فرَّت إليهم، كيف تلقت عقابها بأثر رجعي؟ ما مدى ألمها وندمها؟ أطرق برأسه، فكلما تذكر أمه يصمت ويلهي ذاكرته بمكان آخر.

انتبه لخروج رجل ضخم من باب أقصى يمين الردهة، يحمل بيده أوراقًا كثيرة. توجه مباشرة نحو رئيس المراقبين وهمس في أذنه بشيء ما يبدو أنه خاص بسعيد، لأن كليهما نظر إليه، ثم انسحبا إلى الداخل معًا.

خرج الرجل الضخم ثانية، وتوجه نحو سعيد الذي دوّى قلبه بعنف، كأن الرجل يخطو خطواته الثقيلة من داخله. نهض معه وسار بمحاذاته حريصًا على ألا يسبقه، حتى لا تخذله قدماه ويهوى وراءه. وصلا أخيرًا إلى

مكتب التحقيقات. حجرة مربعة، يتوسطها مكتب وراءه ثلاثة مُحكّمين، أحدهم أشقر وشعره الذهبي طويل خلف كتفيه.

انطلقت نظراتهم كالسهام، حتى أنه مال برأسه للأمام، ورفع يدًا على عينيه كأنه يحمي نفسه. أصبحت أفكاره مبعثرة وشعر أنه منقاد لمصير لا يريده. لكن فات وقت التراجع الآن.

أجلسوه على كرسي صغير مقابل لهم. كانت أقدامهم عارية بلا أحذية أو جوارب. تساءل سعيد إلى أي مدى يمكن لرجال حفاة أن يكونوا مؤذيين، لم يساعده هذا في زعزعة القلق أو تنظيم اهتزازات قلبه. تبادلوا النظرات، وأعطتهم نظرة سعيد المنخفضة نحو أقدامهم انطباعًا بأنه خانع لهم. سأله الأشقر:

- أنت "سعيد ساكن"؟

أومأ سعيد برأسه. حدَّث الأشقر من بجانبه بصوت منخفض ثم سأله إن كان قدم أوراقه لهذا العام؟ وإن كان صادقًا بما جاء به؟

تنحنح المحقق الآخر، ورشف رشفة صغيرة من كوب ماء أمامه. كانوا يصمتون قليلا بين السؤال والآخر، كأنهم يحاولون إضفاء الهيبة على مجلسهم المُصغَّر. كانوا حائرين، لا يعلمون ما عليهم فعله بـ سعيد. فلم يسبق لأحد في تاريخ النظام أن قدم استمارته فارغة بلا أي خطأ محتمل. لكنهم استمروا بالتحقيق، فقال المحقق الثاني:

- هل تمزح معنا يا سعيد؟

حاول سعيد ألا يبدو مرتعبًا، لكن خانه صوته وخرج مذعورًا:

- بالطبع لا. أنا لا أحب المزاح.

- إذًا تسخر منا!

- ولماذا أفعل هذا؟! أنا رجل هادئ تمامًا يا سيدي ولا أحب المشكلات.

لم يكن انهيار سعيد متوقعًا حتى لنفسه. لم يختبر هشاشته من قبل. فقد ارتجفت يداه حين بدؤوا في توجيه الاتهامات. اضطربت أنفاسه وبهت سلامه النفسي، حتى أنه شعر بسقوط ملامح وجهه، تداخلت حواسه ثم تداخلت تمامًا. لم يبق له شيء، لوهلة أحس أنه لم يعد قادرًا على الرؤية، وأن محجري عينيه مجوفان عاريان يمكنهم سكب سائل لزج بهما إمعانًا في تعذيبه. تبعته الهلاوس واستمرت حتى أفاق في حجرة مظلمة، لا يعرف كم مضى فيها. خمّن أنهم اصطحبوه إليها وتركوه محمومًا بمخاوفه التي كادت تأكله. أعادوه إلى حجرة التحقيقات بعدما فاق تمامًا. واستأنف المحققان:

- لقد فحصنا أوراقك يا سعيد.. رجعنا لبرج مراقبتك وتأكدنا مما دونته.

نهض الأشـقر من كرسـيه وحام حوله، لم يستطع سعيد النظر لقدميه العاريتين لشدة قربه منه. مال المحقق عليه حتى كاد يلصق فمه بوجه سعيد الذي اعتقد أنه سيلثمه أو يعضه، فابتعد بحركة غريزية. دخل سؤال المحقق لعقله مباشرة بصوت عميق:

- لِمَ لا تعيش حياة عادية كالآخرين يا سعيد؟

حاول سـعيد الابتعاد برأسـه قليلاً، لم يسـتطع، فتحدث بهمس غير مقصود:

- أنا أعيش بالفعل يا سيدي.

- وكيف ذلك؟

- هكذا، أتنفس وأتناول طعامي وشرابي وأذهب لعملي.

اعتدل الأشقر وابتعد بخطوات صغيرة عنه، كانت في يده أوراق، خمَّن سعيد أنها أوراقه، وودّ لو ينتزعها منه ويأكلها لينتهي الأمر. لكن لم يمهله المحقق واستأنف ملوِّحًا بها:

- انظر يا سعيد، أوراقك فارغة تمامًا. لم تملأ أيًّا من الخانات المطلوبة، كيف لك أن تحيا دون خطايا؟

- لأني لم أفعل أيًّا منها.

- إذًا مـاذا فعلت؟ أنت لا تعيش مـا دمت لا تمارس الحياة. من أجل هذا تأتي إلى هنا، تقدم أوراق خطاياك ونحن نطهرك منها. نطبق القانون ونعاقبك، فتخرج وكأنك ولدت من جديد. هل تعلم يا سعيد أنه لا يوجد في القانون ما ينص على ترك الخانات دون ملئها؟

ارتبك سعيد، فرك كفيه وقال خائفًا:

- معذرة يا سـيدي، لكن لا يوجد في القانـون عقوبة لمن قدم أوراقه دون خطايا كذلك.

تبـع جملته الأخيرة صمت. كانت حالة سـعيد هـي الأولى منذ عقود طويلـة. يُقال إن رجلًا واحدًا قدم أوراقه فارغة من قبل، ولا أحد يعرف مصيره، لم يُكتب أي شيء عنه في السـجلات بعد فعلته هذه. وهذا يعني أن ما جرى له ظلّ غير معلوم، وبالتأكيد أشـد ألمًا من أن يُذكر في أوراق يمكن للجميع الاطّلاع عليها.

لم يعرف سعيد عن هذا الرجل شيئًا ولم يحاول البحث. كل ما رغبه هو مُضيّ يوم عبوره لعامه الجديـد، دون حجرات مظلمة أو وخزات مؤلمة، فقـضى عامه الأخير يتجنب الخطايا. لم يقف أمام مرآته عاريًا، حتى أنه لم يطل النظر إلى وجهه بها، لم يحادث أي امرأة ولم يسـمح لنفسه بالاستمناء قط. لم يشاهد أي مشهد جنسي، وتوقف عن التفوه بنكات خارجة. لم يسافر بصحبة الأصدقاء، ولا سهر ليلاً على المقاهي المحيطة. كان ملتزمًا لأقصى

حد، لا يتكلم إلا قليلاً ولا يأكل سوى بصمت متواريًا عن الأعين. حتى أنه لم يشتر ملابس جديدة. تقشف تمامًا. لم يصرخ، لم يشتكِ، لم يضحك إلا لمامًا، رغم كل ذلك لم يأمن العقاب.

قاده الحراس لحجرة دائرية صغيرة، جدرانها كالحة دون دهان. كانت بلا نوافذ، فقط طاقة صغيرة في أعلى الجدار تسمح بقليل من الهواء. حتى الباب لم يكن محددًا بإطار يميزه من الداخل. حين هبط الليل، أضاؤوا لمبة سهاري صفراء تعكس جسده كخيالات مخيفة على الجدران من حوله.

تخيل سعيد أن الرجل الذي ترك استماراته خالية منذ عقود قضى ليلته الأولى هنا أيضًا. حاول محاكاة مخاوفه وتساؤلاته حول مصيره. كان مرتعبًا، يفتش في نفسه عن حماسته التي قادته لهناك. حضرت أمه برأسه مرة أخرى. إنه ولدها الوحيد، فكيف يمكنه إنقاذ نفسه من هذا الفخ؟ إنه فخ الجينات الذي جعله متمردًا دون قصد. لكنها أقوى، فكر أنها بالطبع لا بد أن تكون الأقوى، ومن سواها يحمل الجينات الأصلية لكسر الأنظمة؟!

اضطجع ساندًا رأسه بيديه وحدق باللمبة الصفراء في السقف. كانت مثل اللمبات الصغيرة المتسربة من شباك شديد الصغر، ما زال يذكره من طفولته. كانت أمه جالسة بجواره في المطبخ تعدّ الأطعمة. وضوء مهتز يبدو كشموس ضئيلة لا تقوى على اجتياح الظلام الكثيف لمناور المطابخ الساكنة في الليل. اعتادت الغناء أثناء ممارستها عملاً يدويًا، لكنها في تلك

الليلة تحديدًا لم تدندن. لم ينس إطلاقًا ملامحها الغليظة التي تأمّلها خلسة وهو مستند بيده على إطار الشباك الصغير.

كان الهواء منعشًا، يخبطه في وجهه. فانحنى للأمام كثيرًا حتى تدلى نصفه العلوي خارج الشباك، وأرجح ذراعيه بحرية كأنهما منفصلان عن جسده. لم يشعر بنفسه إلا عندما صفعته أمه على مؤخرته بقوة، وتعالى زعيقها به. في ذلك اليوم جمع جسده تحت غطاء سريره، كانت أسنانه تصطك بقوة، فاقترب من روحه أكثر ونام.

لم تكن حادة كما يتذكرها، لكنها كانت صارمة. اقتربت أكثر فأكثر من العبوس الكامل قبل رحيلها. لم تمت، لم تصله أي برقية تفيد أنها قد ماتت، وإن كان يرجح ذلك. أو لا يعرف، ربما يتمنى موتها، لكنه لا يعترف لنفسه بهذا، يخفي الأمر بداخله ويواريه عن أفكاره. لكنه في هذا المحبس لم يعد قادرًا على الادِّعاء.

في يوم طويل وجدها قد رحلت، هكذا، أفاق على سريره ولم يجدها. بهتت صورة والده وهو يهرول من حجرة لأخرى لاقتفاء أثرها حتى اختفت. طاردته في أحلامه دومًا، جالسة في ردهة منزلهم الصغيرة، أمام باب حجرته الأبيض الذي كان يتخذه مرسمًا له. يراها شفافة في صباح رائق، وقدماها ملفوفتان بدخان رقيق، تطلب منه الرسم بطول الباب. ثم تراقبه بفخر وبيدها إبرة كروشيه حمراء دقيقة وبعض الخيوط. وعند

انتهائه، تنهض، وتُقبِّله قبلة واحدة فحسب، ثم تفتح الباب وتخرج منه. في كل مرة ينوي ألا ينهي الرسم أبدًا حتى تبقى جالسة أمامه للأبد.

وحيد وسط سجنه، تحت اللمبة الصفراء الواهنة، ارتعد جسده. لطالما رغب في الابتعاد عن مصير أمه، ليجد نفسه في النهاية يسير على خطاها، لكن بخطوات مذعورة أقل جرأة وأكثر إذلالاً. حتى أنه لا يتذكر إن كان يشبهها في ملامحها أم لا. ولأول مرة يقر أنه حقًا يتمنى عودتها واصطحابه معها. ثم تعالى نحيبه.

2

قبل شروق شمس اليوم الأخير لـ أمين، اصطحبه الحراس لغرفة صغيرة ملحقة بالسجن. لم يكن أمين يحب إطلاق لفظة "سجن" على المكان الذي مضى به عدة أسابيع بعد القبض عليه، لكنه لم يجد وصفًا آخر له. سأل أحد الحراس في مرة عن اسم المكان، فأجابه إنه "الفرجة". فسخر أمين منه كثيرًا على مدى أيام.

جرأتهم في الالتفاف حول أصل الشيء هو ما أثار احتقاره نحوهم دومًا. تلك البذرة القذرة التي يغرسونها في النفوس عن العقل المضلل الذي لا يمكنه الرؤية بنفسه. فيصبح وضع إنسان ما في حجرة كالحة لفترة طويلة ليس سجنًا، بل هو إفراجة لعقل لن يُنقَّى سوى بغلقه. بقدر ما كره أمين

تسمية ما حل به بـ"الاحتجاز"، إلا أنه لم يترك فرصة تمر دون إثارة ضيقهم وترديد كلمة "سجن" على مسمع ومرأى من الجميع.

في الحجرة الصغيرة، كان المُحكِّمون جالسين كعادتهم خلف الطاولة، وأقدامهم دون أحذية. ظل أمين يشتت عقله بعيدًا عن القلق من نتائج التحقيقات بفكرة أنهم قد ولدوا هكذا. جاءت الأمهات المنذورات ليكنَّ والدات للمحكمين، وفتحن أرجلهن وأسقطن أجنتهن فوق تلك الكراسي. وترعرعوا فوقها، محتجزين داخل منظومتهم وداخل أحكامهم، يحتسون إكسير الشباب الذي يستخرجونه من نضح المرتعبين بحجرات العقاب، ويخترعون الخطيئة.

بصوت آلي رنان، ألقى أحدهم خطابًا أجوف لم يتحرك له أمين. كان فقط يأمل معرفة حكمهم دون إذعان لهم. وللهروب من فخ الاصطناع، شرد ببصره قليلاً عنهم ليواري توجُّسه.

- لقد فرغت من حياتك هنا يا أمين.

قال المحكم بعد انتهاء الخطاب. فتهكم أمين:

- إذًا انتهت الإفراجة أخيرًا؟

- بالفعل لقد انتهت، أنت الآن لم تعد في عداد الحياة الآدمية. لقد جرَّدناك من رتبتك العليا.

صمت أمين قليلاً وفكر أن الرتبة التالية لن تكون سيئة للغاية.

مع شروق شمس اليوم التالي قيّدوه وغمُّوا عينيه. أركبوه سيارة وساروا في طرق مستوية في البداية، ثم بدأت الطـرق تنعطف بعضها على بعض ولم تعد الأرض بنفس الاستواء. حين وصلوا أخيرًا بعد ساعات طويلة قضاها أمين ما بين غفوات وإفاقات قصيرة، خلعوا الغمامة عن عينيه، نظر للشمس وعرف أنهم اتجهوا جنوبًا. كانوا أمام غابة صلعاء تقريبًا، شجرها قصير وأوراقها قليلة، أسفلها الأغصان المتغضنة متشابكة وحادة.

اقترب منه رجل ضخم وخلع عنه ملابسه بالكامل، حتى حذاءه الذي حاول أمين التمسك به، خلعه من قدميه. كان المحكم المصاحب له يراقبه من السيارة.

يتدرج الظلام أسفل الأشـجار المتقاربة، يكسره أشعة شمس تمكنت من النفاذ هنا أو هناك. كل ما يجول في عقل أمين هو الظلام الفعلي الذي سيهبط بعد قليل. دار حول نفسه مستكشفًا المكان، وبقدم حذرة سار نحو سفح جبل أسود عالٍ يلامس السحاب، يبدو من وراء الأشجار كقيء سماوي. كل ما يأمله هو إيجاد شق جبلي صغير دون ثعابين يضمه، إلى أن يتمكن من التفكير كحيوان ينتمي إلى غابة.

***

ضيق جدًا الأمل الذي عاش به سعيد في منفاه. حين رحلوا بالسيارة وتركوه عاريًا على أطراف الغابة، لعن كل شيء. وما لبث أن هدأ حتى استكشف المكان حوله، واستطاع تسلق شجرة كثيفة الغصون، وقضى ليلته الأولى آرقًا فوقها.

لم يأمل في الكثير أثناء رحلة بحثه عن مكان آمن من الحيوانات يختبئ داخله. لم يكن متأكدًا إن كان للحيوانات المفترسة وجود بالفعل أم لا. لكنه بقي خائفًا يتلفت حوله باستمرار. تغذى على أوراق الشجر واستطاع صنع واقٍ من الأوراق الجافة ليحمي قدميه اللتين تقرحتا من الجروح. لم يرَ سوى حيوانات صغيرة كالأرانب والسناجب والفئران، وحيوانات أخرى لم يعرف لها اسمًا لكنها لم تهدده. وعلى الأشجار بعض الطيور والبوم والثعابين الصغيرة التي تهرب مسرعة حين يقترب منها. طمأنه ذلك قليلاً وإن ظل حذرًا. بعد عدة أيام، تمكن من إيجاد بركة ماء صغيرة، فنهل منها وصورة التماسيح لا تفارقه.

لجأ إلى سفح الجبل في النهاية، باحثًا عن مخرج لمأزقه. كان يلقي باللوم على نفسه في كل التفاتة، حتى ضاقت أنفاسه وكاد يوقفها. تسلق الجبل قليلاً من أقل زواياه انحدارًا، وقرح جسده تنغزه. تراءى له فراشه الدافئ والمصباح الأخضر الصغير بجانبه الذي كان يسهر عليه متأملاً فراغ الحجرة، كانت مغامرة كهذه لتبدو أبعد كثيرًا كثيرًا عن حياته في ذلك الوقت. أثناء

صعوده وجد منبسطًا صغيرًا كدرجة سلم، تقف فوقه أرانب جبلية محدقة بـه. ثم جرت من أمامه وصعدت منحدرًا صغيرًا، فصعد وراءها. كانت ممتلئة بسـعادة وذيولها الصغيرة أثارت شـهيته، فأسرع على أمل اصطياد أحدهـا. مضى في أثرها حتى وصل لمدخل كهف، اضطره للانحناء ليرى ما بداخله.

كان كهفًا صغيرًا، سقفه عالٍ في بطن الجبل، لم يكن ليتمكن من رؤيته بمفرده من الخارج لولا الأرانب التي فرت إليه. حين قرر دخوله بعد قليل من التردد اكتشف أن مدخله عالٍ عن أرضه قليلاً، فكان عليه القفز مسافة قدَّرها بمترين. الهبـوط لمكان آمن لم يكن فكرته عن الأمان، كيف يكون النزول للظلام مهربًا من المجهول؟ لم تكن فكرة مجدية، وكاد أن يسـتدير ليعود للسهل أمام الجبل. لكنه كان قد قضى أيامًا كثيرة بالعراء وفلت الرعب من عقاله مرارًا. إنها حياته الآن وعليه الاختيار ما بين الأكثر رعبًا والأقل بدرجات. حسم أمره وجلس على حافة المدخل والصخور الصغيرة المدببة تنغز مؤخرته العارية. تحسس بأطراف أصابع قدميه المكان أسفله وانزلق بحرص. لم يكن منحدرًا أو بعيدًا عن الأرض كما توقع.

وقف بداخله يتأمل المكان، كان المدخل كنافذة عالية سمحت للضوء بالتسلل للداخل. وحتى اعتادت عيناه على الإضاءة الخافتة لضوء المغيب، كان قد تأكد تمامًا أن هناك من سكن هذا الكهف قبله، وأنه لم يكن ساكنًا

عابرًا. لا بد أنه قضى الكثير هنا، وإلا كيف تسنَّى له أن ينحت ذلك الكرسي الصغير داخل صخور الجبل؟ وذلك المتكأ البدائي المفروش بجلد حيوانات صغيرة متراصة بعناية صانعة فِراشًا صغيرًا، يبدو أنه كان يستريح فوقه. جلس عليه قليلاً قبل أن يسري خدر هادئ بجسده جعله يستلقي مطمئنًا، وفروة أرنب بيضاء ناعمة مستقرة أسفل قدميه، داعبها مرة ثم استسلم وأطبق جفنيه.

في الصباح التالي، أيقظته الشمس التي تعامدت مباشرة على وجهه في بداية يومها. كان الكهف كله منيرًا تمامًا. وقف في المنتصف محاولاً ترتيل صلوات لم يقتنع بها مؤخرًا. لم تكن تبدي نفعًا من قبل، لكنها الآن مستحقة.

وجد أن المكان متسع، به بعض أدوات الصيد المصنوعة من الحجارة والأخشاب، وبعض الفراء الصغير الذي يصلح لأن يكون جوارب. في أحد الأركان آثار نار كانت مشتعلة يومًا ما. بالتأكيد شوى فوقها الطعام من سكن المكان من قبل. كانت الأرانب تمرح بجانبه دون خوف ولم يستطع تفسير ذلك.

وحين رفع عينيه لأعلى، وجد نقوشًا وكلامًا ورسومات على الجدران، بخطوط متعرجة لكنها واضحة. وجملة مكتوبة بجانب المدخل "أنا الإنسان الأول ربّ الكهف". فعرف سعيد أنه كان إنسانا وحيدا تمامًا، ربما لم يخرج

من كهفه قط سوى لإحضار الماء وجلب الأخشاب للتدفئة والطهي.

لم يمـضِ الكثير حتى اكتشـف الكهف بأكملـه. كان آمنًا له، فهدأت مخاوفه وفرك جبهته مشحونًا بمشاعر مرتبكة. مهانته فادحة، كلما تشتت عقله بالسير فوق الأغصان المتكسرة والتيه حول الجبل، وشعر بالإذلال أثناء المُضيِّ وراء حيوان ليصطاده، أو الانكفاء على وجهه ليشرب شربة ماء من بركة راكدة، تضاءل جسده أمام تلك المهانة. ظل يحلم أنه يتقزَّم حتى يصل إلى حجم عقلة الإصبع ويختبئ أسفل أوراق الشجر ويأكل الديدان. في الكهف لسـعته عبرات ساخنة بعينيه أحرقت زوايا العين الداخلية ولم تسقط سوى بعد فركهما.

نهض كحيوان جريح ليبدأ مهمته اليومية المقدسة، البحث عن الطعام. لو أن له أمنية واحدة فحسب في هذه الدنيا الجديدة، فإنه يأمل الامتلاء حد الشـبع للأبد، لا يجوع ثانية. أمسك أرنبًا كان مجاورًا له، تحسسه وتساءل إن كان تناول إفطاره. احتار قليلاً وهو يبادله النظر، فكر أن هذا الأرنب الذي على وشك الذبح الآن أسعد منه حالاً لأنه لم يُطرد من غابته ويتظاهر بأنـه كائـن آخر. ذبحه أخيرًا بعد سـأمه من التداعي. ثم بدأ يعلم نفسـه كيف يشعل نيرانًا، واستخدم الأدوات الحادة التي وجدها ضمن أدوات الصيد. شعر أنه ممتن تمامًا للإنسان الأول هذا، وتمنى بشدة أن يكون على قيد الحياة، ربما يصطاد هنا أو هناك وسـيعود في أي وقت للكهف. وكلما

وجد أداة تساعده في حياته الجديدة هذه، ازداد امتنانًا وقال في نفسه "إن عاد سأكون خادمًا وتابعًا له".

مضت أسابيع ولم يرَ سعيد أي بشري. كان يدرك أنه لم يعد إنسانًا بحسب قرار المحكمين، لكنه أيضًا ليس حيوانًا بقرار حياته الجديدة. كان قد ملَّ من لحوم الأرانب ولم يعرف كيف يصطاد أي كائن آخر. كما أنه لم يرَ أي حيوان آخر يمكن التهامه، وسرح بفكره في لحم الغزال الذي طالما ودّ تذوقه، لكن أين هذا الغزال هنا؟ ورغم رغبته الشديدة في إيجاد طعام جديد والبقاء حيًا لكنه لم يبتعد عن الكهف إلا مسافة صغيرة نحو بركة الماء.

قضى وقته بالكهف يقرأ ما كتبه الإنسان الأول، ويتأمل الرسومات المنحوتة. كان أكثر رسم مكرر لإنسان يطير بأجنحة وراء ظهره، ذكّره هذا بالرسومات في سقف ردهة العبور. بدا له إنسانًا حائرًا لا يجد مهبطًا له. بحث عن رسم لأبواب مفتوحة حوله، فوجد أبوابًا موصدة. أما الكتابات فكانت كمذكرات، لكنها غير مُفصَّلة. فهم سعيد أن الكتابة كانت أصعب من الرسومات لصلابة الصخور، لذلك كانت أقل وغير معبرة. فقط مجرد تسجيل لبعض أيامه وكيف استخرج بعض الدهانات من الثعابين ليشفي جروحه. كان سعيد مأخوذًا بالإنسان الأول، يحاول تخيله، وطفقت فكرة برأسه أنه هذا هو الرجل الذي سبقه في ترك استماراته فارغة. شهق حين وصل لذلك الاستنتاج، ودار حول نفسه عدة دورات غير مصدق

ما ذهب إليه. لقد تشابكت مصائرهما وتقابلا عبر الزمان في مكان واحد، كأنه فعل كل هذا ليناوله لـ سـعيد كاملاً، كترحيب وإيمان به. كان يسعى للخلود عبر تسـليم رايته لمن يأتي بعده، ورسوماته وكلماته تنم عن ذلك. أنارت الفكرة عقله وبدأ ينظر حوله من جديد وكأنه يرى كل شيء لأول مرة. تأمل رسوماته أيامًا طويلة وأدرك أنه ندم على ما خطا إليه. لقد كانت خطوطه مهزومة وحائرة، تصوره محلقًا دائمًا ولا يحط في مكان قط.

نسي سعيد في خضم أفكاره المتخبطة في بعض الأحيان نحت التقويم على الصخـر، فتوقف تمامًا. أكثر ما افتقده هو التحدث مع شـخص ما، مشاركته اكتشافاته حول تاريخ من سبق وانحاز لنفسه ضد النظام. ثم أسف للخسارة، فلا فائدة للاكتشافات سوى بنقلها للآخرين. استعاض عن الناس بالأرانب التي كانت دائمًا بصحبته، رغم أنه يصطاد منها ويسلخ جلودها ويشـويها أمام المتبقي منها، لكنها لم تترك الكهف رغم ذلك، بل ازدادت كلما نقص منها. كان يحدثها ويحكي لها عن حياته في المدينة. واكتشف أنه لم يكن يملك حياة، وأن المحقق الأشقر كان محقًا في بعض ما ذهب إليه. لقد كان خائفًا من العقاب طوال الوقت، يملأ استماراته والذنب يطارده. ثم حين قرر التوقف عن اقتراف أي خطايا، كان شعورًا بالإثم يملؤه كذلك، لكنه اتجاه النظام الذي نشأ عليه. فكر أن ذلك الإحساس ولد معه، وازداد حين تركته أمه. ورغب بشدة في العودة ليخطئ من جديد.

إلى أن عثر على أمين. كان يسير في اتجاه بركة الماء، ولحيته طالت لتصل إلى صدره. اعتاد العبث بشعرها الطويل وترديد صلواته طوال الطريق. في البداية لم يصدق أنه سمع صوتًا بشريًا واهنًا، وظن أنه خياله النشط. ثم توقف حين سمع تكرار الصوت، نظر حوله بحذر، فوجد جسدًا عاريًا ملقيًا على الأرض.

كان أمين محمومًا ملقى على وجهه وعظامه بارزة، حتى يمكنك أن تلتقط ضلعًا من أضلعه وتصوبه نحو طائر فتطعنه. ألجمته المفاجأة، ثبت مكانه ولم يستطع التصرف. لم يتسع أمله قط في الآونة الأخيرة لإيجاد بشري. حمله برفق بين ذراعيه وصعد به بصعوبة حتى وصل للكهف. أجلسه على حافة مدخله ثم هبط للكهف وسحبه للداخل. كان أمين واهنًا لكنه تمكن من مساعدة نفسه والهبوط سالمًا.

داواه سعيد، مسح جسده بزيت نجح في استخراجه من جسد عدة ثعابين، كما قرأ على جدران الكهف. وشوى له بعض الأرانب التي التهمها أمين بنهم. ثم صنع له بعض الألبسة من فرائها.

بعد انحسار الحُمَّى، فاق أمين. كان مذهولاً مما مر به. تعارفا، وتبادلا الحكي والكلام. كان قصيرا، هزيل الجسد، لكنه ملأ مكانًا بالكهف. فشعر سعيد بأن شريكه الجديد يأخذ مساحته الخاصة التي اعتاد عليها منذ قدومه. لكنه ذكَّر نفسه بوحدته القاتلة، وفكر أن يعرض عليه فكرة الاستقلال

بكهف خاص به، وأن يتعاونا كجارين في كل شيء.

كان أمين معتاد الفرار والمكوث لفترات طويلة بمفرده، كما كان يفعل قبل القبض عليه. حكى أمين أنه لم يقدم استماراته منذ عامين ولم ينضم للأرض الثانية كذلك. هكذا ببساطة، قرر تجاهل النظام. وقضى معظم الوقت هاربًا متنقلاً من مكان لآخر حتى سأم الفرار وعاد لمنزله، وهناك وشى به أحد وأُمسك به. سأله سعيد في ظهيرة أحد الأيام إن كان يشعر بالندم. فاندهش أمين من سؤاله وتساءل عن سببه. فقال سعيد لأنك تخليت عن النظام فهز صاحبه رأسه نفيا.

كانا يشويان اللحم الأبيض لأرنب ضخم، فقلب أمين الوجبة فوق النار ووضح:

- في يوم ما بعيد، كنت جالسًا أتأمل ظلالي على الأرض، أقيس حجم ظلي مقارنة بحجم جسدي الفعلي. ولوهلة تخيلت أني لست الأصل، وأن الظل ليس انعكاسًا لي. الأصل كان الضوء من حولي. أنا لست موجودًا بالفعل، وكما يتلاشى الظل بزوال الضوء يمكنني كذلك التلاشي. يومها قررت التوقف عن ملء الاستمارات. فكرت أن لو كان لا بد لي الاختفاء والموت، فليكن الأمر بعيدًا عن تلك التفاهة التي نختصر بها أنفسنا ومشاعرنا فوق خانات العقاب. ثم نبتذل إنسانيتنا في حجرات الخطأ ونطلق عليه التطهر.

فقال سعيد متسائلاً:

- ولكن ألم تبتذل إنسانيتك الآن وقد جردت من رتبتك العليا؟

- هم من فعلوا، لكني ما زلت إنسانًا. هل تصدق أنك لم تعد كذلك؟

فكر سعيد كثيرا. كيف استطاع الحياة عاما كاملا دون أي خطأ وكأنه لم يعش. لقد جرد نفسه من رتبته العليا قبل أن يفعلوها بزمن. تذكر مرارا كلام أمين حول حريته في الخطأ كالإنسان الأول، لكنه يرى أنه لم يكن إلا مقيدا، لقد ندم بالضرورة لكنه فقط لم يجد طريقا للعودة.

غضب سعيد من المناقشة واعتبرها خطرًا على إيمانه الذي كوَّنه منذ قدومه للغابة. انفعل ولكنه لم يجد ما يقوله، فتسلق المدخل وخرج من الكهف بأكمله وهو يتلو صلواته وأدعيته. شعر أن ما قاله أمين ما هو إلا إهانة للإنسان الأول. تداعى لذهنه الأب الأكبر حين ترجَّى الإله أن يكون له صُحبة، فجاءت السيدة لتدمر كل شيء وتطرده من الجنة. إنه لم يتمنَ صحبة أمين ليأتي ويزعزع إيمانه بكلمات خاطئة.

سار للبركة واغتسل، بينما الأفكار تجيء وتروح برأسه لا تهدأ. كان يفكر في حكمة الإله الذي أرسل له صحبة كهذه. أيريد له أن يُعاقَب بعد الموت؟ لكن لماذا الآن بعد أن بدأ يؤمن بالعقاب الحياتي الذي حرص

النظـام عليه وغذاه ليكتمل هكـذا؟ حتمًا هناك حكمة وراء ذلك، ولا بد من الوصول إليها.

حين عاد تصنَّع الهدوء وقرر تجاهل أمين. لم يعد يريده معه في الكهف. في الليـل زارتـه بعض الأحلام، اعتبرها رؤية يسترشـد بها، وقضى نهاره يصلي، ثم طفقت بذهنه فكرة مخيفة، تساءل بينه وبين نفسه، أيكون مفتاح الجنة هو الخطيئة الإنسانية المتكررة؟ وتأكد أن إرسال الإله أمين له وراءه رسالة، كما كانت السيدة هي رسالة للأب الأكبر.

نظر لـ أمين الذي كان يجمع الأغصان بالسهل عند قدميّ الجبل. والغابات ممتدة على مدى بصره. كان ما زال هزيلاً يسـهل الانتصار عليه بسـهولة. ازدادت عيناه اتسـاعًا ولمعت. تحسس شريحته الإلكترونية بذراعه وتمنَّى ألا تكون معطلة. بالتأكيد سيأتون إذا أخطأ ليروا إن كان مستعدًا للانضمام إليهـم من جديد. تمنى أن يكون تخمينه في محله. وبدأ يخطط لما لمعت عيناه من أجله.

في الليل، بعد أن سـقط أمين في النوم، أخرج سعيد عضوه المنكمش، عبث به حتى أيقظـه، ثم اعتلى أمين الذي كان غارقًا في النوم بهدوء. قيّد حركته بجسده واستطاع رفع فراء الأرنب الهزيل الذي يغطيه وولجه من الخلف. اغتصبه عدة مرات، ولم يتمكن أمين من النهوض من أسفله لضخامة جسد سعيد بالنسبة إلى جسده.

حين وقف أمام المحكمين مرة أخرى، بعد أن عادوا واصطحبوه لاستجوابه بشأن خطيئته هذه، قال بثقة "لقد رجعت بشريًا ثانية وأريد العودة"

سأله أحد المحكمين وهو ينظر إليه باهتمام:

- ولماذا اخترت تلك الخطيئة الشنعاء لتعود؟

فأجاب سعيد بلا تردد:

- لأنها فعل آدمي.

وبعد مداولات، جاء الحكم النهائي بعودة سعيد، ورجوع رتبته العليا له ثانية. وتصدر الصحف والإعـلام كأول رجل يُطرد ويعود، كالرجل الأكثر إيمانًا من بين الجميع. أما أمين فلم يُعرَف عنه أي شيء بعد ما فعله به سعيد.

3

كانت تدنو من النهاية بخطى مرتعشة. تنهي يومها كل مساء قائلة بهمس لنفسها "من منا لن يموت؟!" ثم تنام وتأمل ألا تصحو. حين عاشت أكثر مما توقعت، قررت كتابة الخطاب الذي لطالما أرجأته. فكرت أن حياتها التي طالت هي علامة، ولا بد من المُضيِّ ورائها. في الوقت نفسه علمت بخبر سعيد. فجلبت قلمًا وأوراقًا وجلست على طاولتها تكتب:

"إلى ولدي سعيد:

كلما لمحت طفلاً باكيًا تحسست معدتي. ألم ما خبطني ولم يفارقني منذ رحيلي. في كل مرة يضرب مكانًا مختلفًا. أتحسس مكان الألم، أربت عليه

بحنو فيرق لوجعي ويصمت. لكني لا أستطيع تدليله حين يبكي طفل. أقف عاجزة أمامه، لا أفهم. وأود احتضانه بقوة حتى يتمكن من الاختباء بداخلي ثانية، فيعود كأن لم يكن ولن يشم الهواء ولن ينتظر سائل الحياة ليرويه.

لم أستطع إرجاعك لرحمي حتى ننسى عناء التجربة، فابتعدتُ صامتة. ظننت ف البداية أن وجودك ضروري لوجودي أنا، لكني أدركت أنك لست امتدادًا لي، إنما أنا الامتداد. أنت الأصل وأنا مجرد هامش. لذلك كان عليَّ تركك لأجدك بطريقتي الخاصة.

دعني أحكي لك، أكلمك حتى لا تتوه كثيرًا أكثر مما فعلت. كانت الخطيئة الأولى التي عوقبت بسببها عدة سنوات متتالية هي عزوفي عن الزواج. كنت أكتفي بإمتاع نفسي في بعض الأحيان ولا أكترث لرجل في حياتي. لا تخجل يا ولدي، فإنك الآن رجل تدرك كيف تسير الأمور. ولقد بلغت من العمر الكثير الذي يجعلني لا أخشى الاعتراف.

كانت فعلتي هذه من ضمن الخطايا الكبرى، وكان عليهم إخماد ثورتي، فتطلب منهم ختاني عدة مرات بحجرة عمليات القطع. هناك يقطعون قطعة من جسدك، آمل أنك لم تمر قط بتلك الحجرة المضيئة كحفرة تطل على الشمس نفسها.

في المرة الأخيرة، ذهبت مرحبة بالعقاب، قدمت جسدي فوق طاولتهم وتمددت بأريحية وأنا أعرض أعضائي الهائلة أمامهم، ووددت أن أقول كلما قطعتوا جزءًا "صرت أكثر أنوثة"، لكنهم لم يتوقفوا لحظة أمام جلال المشهد، ومارسوا عملهم بآلية. وقتها أدركت أنهم مقتطفو الأرواح، أجساد مجوفة سائرة فقط في الاتجاهات المحددة لها.

في العام التالي سجل جهاز مراقبتي أني حاولت الانتحار. لم يكن الأمر كذلك، لكني تركتهم يفعلون ما يحلو لهم. لم تكن محاولة انتحار، إنما محاولة فاشلة للغاية للتخلص من جهاز مراقبتي.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم. كنت في السابعة من عمري. لم يكن مسموحًا بالتحدث مع الأطفال من دون السابعة عن أجهزة المراقبة، ويعد ذلك خطأ يستوجب المُساءلة. كنت أرتدي فستاني الأزرق القصير وألهو في شرفة جدتي. نادتني أمي وقبّلتني وطلبت مني النزول لأبي لأمر مهم. لمحت ضحكة ابنة خالتي الكبرى وأمها تشدها من أذنها لتدخل إحدى الحجرات الداخلية. لم أفهم حينها، لكني شعرت أن أمرًا جللاً في طريقه للحدوث. كان الجميع مبتسمين ويتمنون لي السلامة، عبرت وسطهم ونزلت السلالم بهدوء كأميرة صغيرة في طريقها للتتويج.

كان السلام الملكي من فيلمي المفضل يرن في أذني، فمشيت في الشارع باتجاه أبي بخطوات ملكية ثقيلة. كان صباحًا حارًا وأبي يرتدي قميصًا

بلا أكمام على ناصية الشارع. مسك يدي وسار بي نحو السيارة دون كلام، وهناك داخل مقر العبور، ساعدوني في العبور من عالم الطفولة للعالم الإنساني الأكثـر طهرًا، زرعوا جهاز مراقبتي بذراعي أعلى الكوع مباشرة. وظلت الحُمّى مصاحبة لي عدة أيام، حتى أفقت وبدأ تسجيل خطاياي يعمل بدقة.

كنـت أكذب داخـل عقلي أولاً، أحبك الكذبة تمامًا ثـم أتفوَّه بها أمام الجميع بأنفاس هادئة، فلا يسـجلها الجهـاز. نجحت في الإفلات مرات كثيرة ولم أُعاقب. كان عقلي هو الصديق الذي يقف خلفي. أحببت اللعبة وكرهتها. عشرات المرات أتأرجح بداخلي ما بين شك ويقين، وحب وكره، ومزاج متقلب يرغب في التحدي.

بدأ الأمر بأكمله منذ عشرات السنين، يقال إنهم مائة ويزيدون تسعًا. نجحـت ثورة ما حينهـا، يمجدونها كثيرًا بكتب التاريـخ. كان عزيز من فجرها، وأنشأ مجلسًا ثوريًا ليقبض به على جمرات انتصاره.

اعتقلت قوات عزيز حينها رجالاً لم يتمكنوا من الفرار. رجال أصبحوا من الماضي، لكن محاسبتهم ضرورة لأمن الثورة والثوار. في البداية فرض عليهم حظر الخروج من بيوتهم أو الاتصال والتواصل مع أيٍّ كان خارج البلدة، لكن قبضته لم تكن من حديد كما كان يأمل، فاستمرت المناوشات والتسريبات للخارج، فأعدم أحدهم وأبقى على الآخرين لحين اتخاذ قرار ما بشأنهم.

كانـت الحياة وقتذاك ممكنة، كما أخبرني والدي الذي أخبره والده عن كل شيء، أشـياء. حينها تنفس الجميع كـما لم يفعلوا من قبل. وتقدم كبير العلـماء للمجلس الثوري باختراع يزيد من قبضتهم حول رجال الماضي. فبدا كل شيء تحت السيطرة. كان الاختراع هو تلك الشريحة الذكية، نسيج رقيق ذو شرايين تمكنت من التأقلم مع أجسادنا، وكما تعلم لها ذاكرة طويلة المدى تسـجل كل شيء قد يفعله الرجل في يومه. كانت ثورة تكنولوجية موازية لثـورة عزيز الكبرى. ثورات تتبعها ثـورات، مد بلا جزر اجتاح العالم. وازداد الهتاف باسم عزيز بالأرجاء.

أيـن قد يذهب الرجل من نفسـه؟ قد تصيبه لوثـة عقلية وهو يحاول إخفاء فعل ما عن نفسه. واتسعت رقعة الأنسجة الرقيقة لتشمل المعارضين ومؤيديهم وأحبابهم وعائلاتهم وجيرانهم ونحن، جميعنا. امتدت المنظومة وطالت الجميع.

هنـا، في عالمنا الصغير، على بعض النواصي وفوق بعض الجدران، قد تجد نحتًا أو رسمًا لرجل مجهول بلا وجه، يرتدي بدلة عسكرية ممزقة، ويده اليمنى مبتـورة وقدمه بلا أصابع، إنه رمز لذلك الإنسـان المتمرد الأول الذي رفض النظام ونزل لأرض ثانية ثم صعد لسـماء أخرى. نلقي عليه التحية ونَمُرُّ.

كل هذا ملأ رؤوسنا صداعًا. صرنا ندَّخر الخطايا بين جلودنا ولا نعرف

أين نصرفها. كنت أتخبط ذعرًا في طابور تقديم الأوراق. كنت أبكي لأن البكاء غير مسموح به، أفعل كل ما هو ممنوع. أملأ الاستمارات بالخطايا التي حتى لم أفعلها، وأتركهم يتأكدون من جهاز مراقبتي، لأنه لا يمكن لطفلة فعل كل هذا في عام واحد.

لكني رضخت في النهاية وتزوجت. آلمني جسدي المقتطع أكثر من جسدي الباقي. كل قطعة ترحل عني تزورني بأحلامي، أراها تبحث عني، تائهة وسط أجساد كثر كقطعة بازل وحيدة بلا قيمة.

تزوجت أول طارق لبابي. نسيت شكله الآن لكني لم أنسَ أنفاسه الثقيلة فوق جسدي، وأصابعه الرفيعة الطويلة التي تزحف كثعابين بين طياتي. لقد أصبحت متأكدة أنني سأغدو جوفاء إذا سمحت لهم بلمسي مرة أخرى، ولم أكن أعرف أني سأكون موحشة على أي حال.

ثم كنت أنت، مبتهج الوجه. قدرت لك الفرحة، هكذا رأيت مصيرك حين رأيتك لأول مرة، فكنت سعيدًا. حملتك بين يدي ولم أتركك قط، كنت أنت المفضل لي. أجلِسك بجانبي وأغني لك. كنا اثنين وحيدين منبوذين، أعاقب أنا كل عام على تفضيلي لك عن الجميع، وتعاقب أنت من الجميع لكونك المفضل لديّ. كنا كقوسي دائرة ندور معًا ولا نكترث.

عرفت مؤخرًا أنك قد تمردت أخيرًا. تركك لأوراقك خالية لم يكن التمرد الكافي بالنسبة إليَّ لكنه خطوة صحيحة. ما زلت أنتظرك في الأرض

الثانية لترى قصص تمرد وفرار كثيرة. إنها ليست أرضًا ثانية كما يطلقون عليها بمقر العبور، إنها الأرض البكر، الأولى. إنها الأرض الحرة التي تليق بك متمردًا اختار مصيره. فالمتمرد العادي يحيا هنا حرًا فما بالك بمتمرد سعيد مثلك يمكنه أن يطير!

كان رحيلي لك أنت. حين لمحت جسدك يتأرجح من الشباك كففت عن الغناء، لماذا أردت الموت يا بني؟ سهرت ليلتي أسمع نشيجك أسفل الأغطية. لم أصدق أني كدت أفقدك في لحظات، لولا أني كنت قريبة فجذبتك بشدة إليَّ. ليلتها قررت الرحيل والانضمام للأرض الثانية وإبطال جهاز مراقبتي بالطرق غير الشرعية. كنت أعرف دومًا أن إحباطاتي ستنتقل إليك وتصيبك، لكني رغبت بشدة ألا أصدق ذلك. رغبت في ألا تلحظ ذبولي وأنا أقدم روحي إليهم عامًا بعد عام، لم يتبق لك شيء. فذهبت لئلا تذبل معي، وانتظرت تمردك لأني على يقين أنك ورثت كل شيء مني، وأني امتدادك بالحياة.

لا تفعل أبدًا ما يفعله الآخرون. لا ترضخ كما فعلت. أراك في أحلامي تفتح بابًا أبيض مليئًا برسوماتك الطفولية الملونة، تقف أمامه وتشير إليَّ فلا آتي. تحزن ثم تمضي، تعبره بعيدًا. أنا الآن على الناحية المقابلة من الباب، أنتظرك يا صغيري، وأتساءل إلى أي مدى يمكنك الغفران؟".

انتهت. وبحثْتُ عن طريق لإرسال كلماتها. كانت تعرف أن سعيد طُرِد

بالغابة المهجورة منذ زمن قديم. طلبت من كل شخص قابلته إيجاد سبيل لإرسال الخطاب، طمأنها الجميع، لكن بدوا وكأنهم يُسكِّنون مخاوفها فحسب. وبأنفاس قليلة وضعت الورقة أسفل وسادتها. لم تعرف أبدًا بأمر اغتصاب سعيد لأمين، وانتقل الخطاب من يد لأخرى لسنوات كثيرة بعدها.

4

حين وصل صلاح مع حسام للخرائب ليلاً لم تكن كما توقع، ولم يكن الليـل كما الليل. شـعر بأنه في قلب الحياة نفسـها، فالخيـم متراصة أمامه والمتحركـون بكل اتجاه، على عكس المدينة الكئيبة التـي تركها لتوِّه.عالمًا كامـلاً لم يكن لـيراه في حياته أو حتـى في أكثر أحلامه شـططًا. لم يحدث أبدًا أن رأى تجمعات كبيرة كهذه سوى بمقر العبور حين يطول الطابور. كما أنه لا يذكر سـماعه لضحكات عالية بالشـارع، بالكاد يبتسم البعض من حين لآخر إذا حدث ما يستدعي ذلك، وتنتهي الابتسامة سريعًا قبل ظهور الأسنان الأمامية. أما تلك الحياة التي -للمصادفة- أُقيمت وسط خرائب، والتي بناها شـعور زائف كالشك، فإنهم يستحقونها، لأن حتى

الرجل المتيقن الثابت كصخرة جبل شديد الصلابة، عليه التشكك من وقت لآخر. كما كان سكنهم بالخيم بالأساس مناسبًا تمامًا لهم كقوم رُحَّل بين عالمين صامتين وبينهما هرج، هذا الهرج الرحب الذي لا يسعه كلمة صغيرة كـ"بَين".

بخيمة حسام، كان شركاء باقون بالمكان لا يغادرونه، على عكس حسام الذي كان يرهقه الأمل، فينحسر مبتعدًا ثم يعود مرة أخرى، لينضم لجوقة الباحثين عن الأرض الثانية، يرى الخرائط ويستمع للاقتراحات ويقدم نفسه كمستكشف مع البعثات التي تمشط الصحراء من حولهم. لكنهم في كل مرة لم يجدوا سوى المزيد والمزيد من تابعي النظام.

بالنهار تجلَّت الصورة أمام صلاح أكثر. الخيم أكثر مما ظن والحياة مفتوحة على كل الاحتمالات. منذ أن أصبح ذلك الخطاب التعيس بيده بعد رحيل أبيه، تخيل أنه ذلك الفارس الذي وقع عليه الاختيار لمواصلة ما بدأه جده. لكنه بعدما افترش سريره ليلاً وقبل نعاسه، واجه نفسه بما أنكره دومًا، اعترف أن هذا الخطاب هو ذريعته الجيدة للفرار، وأنه قبله لم يكن سوى جبان. كما مال إلى فكرة أن أباه كان جبانًا أيضًا خصوصًا وهو يعي جيدًا ما حدث لأبيه قبله، لكنه حاول تجاهل الفكرة، وركنها جانبًا. ثم استسلم للنوم، وحياته الفعلية أمامه تبدأ أخيرًا بعيدًا عن استمارات الخطايا وحجرات العقاب.

انعطفت الحياة بأرض العبور منعطفًا شديدًا بعد عودة سعيد من منفاه. لقَّبوه حينها بالأشد إيمانًا من الجميع، ففرض إيمانه بقدر ترحابهم به. وأصبح الأرنب رمزًا للإله ولمحبته، مكَّنه سعيد تلك المكانة لصحبته بمنفاه، فأصبح بشارة سماوية، ألَّهَهُ وخلَّد المتمرد الأول صاحب الكهف كما لم يحدث من قبل. أصبح من الطبيعي رؤية تمثال لأرنب بعين حمراء نارية في حجرات العقاب، ينظر إليهم بغضب. قدموا له القرابين بالمعابد ليرضى، حتى أن كريمة زوجة صلاح قدمت الكثير ليبقى صلاح برفقتها وينسى أمر الخطاب.

لم يكن أمام صلاح سوى حسام صديقه كثير الاختفاء. عندما استقصى وراءه عرف صلاح أنه يفر للبحث عن الأرض الثانية. ما لم يعرفه هو كيف يعطل برج مراقبته ويهرب ويعود دون القبض عليه. ضحك حسام وقال: "لا نعطله أبدًا لكننا نكتم كل شيء عن أنفسنا".

فهم صلاح ما يشير إليه بعدما قرأ خطاب الأم عدة مرات. تلك المكابدة اللئيمة التي يمر بها حاملو أبراج المراقبة، تلك المعاناة في ملاقاة حجرات العقاب وطوابير الاستمارات والجلوس في مواجهة النفس للاعتراف بكل هفوة، كل خطية، كل زلَّة هو هوة آدمية بلا قرار.

أخبره صلاح عن الخطاب، فقرأه حسام أكثر من مرة. لم يُعقِّب، إنما أخبره أن يستعد باكرًا. وسأله كيف وصل جدك أمين لهذا الخطاب؟

قلب صلاح شفتيه في حيرة وهز رأسه متعجبا. فلم يعرف أحد أبدًا سره.

في الصباح، خرجا متسللين ورأساهما مختبآن داخل غطائي رأس صوفيين. هربا داخل مقطورة تنقل الحبوب والخضراوات ونزلا في طريق جانبي مهجور. وصلا الخرائب سيرًا على أقدامهما بعد مسيرة نهار كامل.

لم يكن للمجموعات بالخرائب قائد، إنهم بائسون فروا من مآسيهم الخاصة ومن الوخزات والآلام بحثًا عن جدوى. إنما رجل واحد يُدعى جابر، هو أقدمهم في السعي وراء ذلك المجهول الذي لم يثبت قط وجوده بشكل حقيقي وملموس. كان بمثابة أب روحي لهم.

ربما كان خطاب الأم هو الوثيقة الوحيدة التي بها اعتراف خطي يدل على وجود ما يسمى بالأرض الثانية بالفعل. لا يعرف أحد مكانها أو كيف تبدو، غير أن بها جدرانًا فوقها رسومات، وبشوارعها نواصي منتصب بها منحوتات لرجل يلقون عليه التحية ويمرون، هكذا كفقاعات صابون مطمئنة ممتنة لحياتها الصغيرة الملونة.

اصطحبه حسام لخيمة جابر، كان شديد البدانة ولا يبرح مكانه منذ سنوات. تفحص صلاح قليلاً ثم دعاه للجلوس. لم يتبادلا الكثير من الحديث، استمع لخبر الخطاب وضمّ شفتيه ثم تساءل عن ما يريده الآن

فقال صلاح بتروٍّ أنه لا يريد شـيئًا لنفسه، فقط يريد أن يعلم الناس أن ما أرادوه دومًا موجود بالفعل.

صمت قليلاً، ولاك بشـفتيه شـيئًا ما غامضًا، اعتقد صلاح أنه اجترّه كجمـل من حدبته الأمامية. كان يفكر بعمق ووجهه مهموم كمن لا يجد مخرجًـا من داخل حفرة. ثم مال برأسـه قليلاً نحو صـلاح بالقَدْر الذي سمحت به رقبته السمينة، وقال:

- أتعرف أننا لم نعد نبحث عن الأرض الثانية منذ زمن؟

- لكن ما أعرفه أن حسام يمشط المكان من حول...

قاطعه جابر:

- حسام لا يفعل شيئًا جادًا، ولم يعد أحد ينتظر أي شيء.

- إذًا لماذا بقيتم هنا؟

- لأننا قطعنا دربًا طويلاً نحو الحرية. النظام اليوم مُترهِّل، يعتمد على قرابين خراء الأرانب، ولم يعد متعصبًا بشأن استمارات العقاب.

- لكن أبراج المراقبة ما تزال في أجسادكم!

شرد جابر ببصره بعيدًا وكف عن الحديث. كان جالسًـا أسـفل طاقة عريضة في قماش خيمته تسربت منها رقعة صغيرة من الشمس على نصف

جسده المقابل لها. حين أشاح بوجهه عن صلاح، غمرته الشمس بالكامل، فظهرت تجاعيده وأسنانه الرمادية النَخِرة المختبئة داخل فمه، المنتفخ المتطابق حد الالتصاق، لكنه فرغه وتمتم حين همَّ صلاح بالرحيل أن لا رجاء من الأمل.

فرغ صبر صلاح وقال محتدًا "لقد اختطف سعيد المرسل جدي وعذبه ليحصل على هذا الخطاب. لا أعلم ما وصل إليك وأنت في خيمتك هذه. لكننا كعائلة نحمل ذلك الإرث الثقيل، وقد قررت أن أُظهِره أخيرًا للناس من أجل أمين.

وخرج غاضبًا من الخيمة ينوي نشر الخطاب بين مجموعات الخيم. مضى أيامًا يجادل حسام حتى كادت مناقشتهما تثقب السماء فوقهما، ثم أشاعا خبر الخطاب بين الناس.

مجموعات متصلة على عزلتها، يشيرون للغرب أو للجنوب، ما خلف الغابات، ما خلف الخرائب، ما خلف البحر. اسم "أرض ثانية" ساهم في صورتها المختبئة وراء شيء ما عظيم. اقترح أحدهم أنها أرض "ثانية" أي أنها أسفلهم، طبقة سفلى تحت طبقتهم، واقترح الحفر بعمق مئات الأمتار للبحث. أصبح الخبل على رؤوس البعض والدهشة حلَّت فوق رؤوس الآخرين. يعود بعضهم لأرض العبور ليقدموا استمارتهم ويتلقوا عقابًا ويقدموا قربانًا للأرنب، لأنهم بحاجة إلى مقدس أمام نظرهم، أو لأنهم

يتجنبون تسجيلهم بقائمة الهاربين. كانوا كالحواة، يتمسكون بكل المواقف كي لا يخسروا، يقفزون على حبال هاوية مشدودة ما بين أبواب حجرات العقاب وبوابات الخرائب المحملة بكل متنفس.

لم يقف صلاح لحظة ليفكر فيما فعله خطاب أم سعيد الذي كتبته بأيدٍ محتضرة، ومضى سـعيد آخر أيامه يهلوس بأسـئلة عنه. وكأن كل ما لاقاه مـن منزلة رفيعة لم يكن كافيًا ليرقد بهدوء، وأن خطابًا تعيسًـا وحيدًا من أمه لكان أجدى له. خطاب الموت كما أطلق عليه جابر.

تمادت الجموع في بحثهـا ولم تخفت الأصوات أمام أي صوت عاقل، وحين قال جابر بأن لا أرض ثانية سـوى هنـا، طعنه أحدهم طعنة قاتلة في ليلة هادئة. لم يشـعر به أحد. وجدوه مقتولاً بعد ظهيرة اليوم التالي من مقتله. ودمه وشحومه وهمومه سائلة بجانبه، وقد نحف جسده كأنه خف تمامًا ليساعد الروح في تحليقها.

وتشتتوا في كل الاتجاهات، على رأسهم صلاح الذي تبع كل مجموعة لمدة من الزمن. مُتذكِّرًا دومًا جده وظهره المحني في خيبة، ونظره المنخفض وكأنه يبحث عن شيء. أمين الذي ولجه سعيد بالقوة وفرَّ بالغابة على غير هدى، أمضى أيامًا يهذي ويسير بدروب مجهولة، ويحك مؤخرته بالصخور والأغصان والرمال والشمس ليدميها ويطهرها بالدم.

انعطف عدة منعطفات، فوجد كوخًا صغيرًا على مشـارف إحداثيات

ممحوة، كوخ من خارج الزمان. طرق بابه والخذلان يتساقط على الخشب غير المطلي. طلت عجوز من خلفه وفتحت بابتسامة هادئة، ظنت أنه ساعي بريد هاجمه حيوان ما، فقدمت كل شيء يمكنها تقديمه، الطعام السائل والصلب والشراب الدافئ والساخن، وطببته بأنفاس قليلة ويد مرتعشة. ثم نامت ولم تفق، لم يسعها الوقت لتحكي له عن ولدها الوحيد الذي خلَّفته وراءها لتتشابك مع العالم الحر وتحيا من جديد. كان الخطاب بيد أمين حينها، لكنه لم يقطع وعدًا، لذلك لم يخلفه.

انعطف ثانية خارج البيت، سار وفقًا لحدسه، حتى عاد لكهفه بالغابة، عاريًا إلا من كلمات الأم، وبفمه طعم الحامض الذي ألهب فوهة معدته. قُبِض عليه ثانية بتهمة اللواط. فكان الخطاب هو ما استخدمه ليُغضِب سعيد ويقلق رسوخ مكانته. لم يصدقه سعيد بالبداية، ولم يحضر جلسات محاكمته. لكن حين عرف أن أمين وصف أمه لجميع المُحكِّمين الذين جلس أمامهم، ركض حيث كان. لم يجد سعيد الخطاب، ولم يعترف أمين بمكانه مطلقًا رغم كل ما لاقاه. كان مخبأ بعناية أسفل جذور شجرة كبيرة بالغابة. ومضى أمين يحلم بنثر رماده بعد الموت ليحلق كما لم يفعل قط في حياته، لكنهم لم يستطيعوا تنفيذ وصيته، لأن النظام يمنع المحتضر من ترك وصية.

خطاب الموت انتقل من يد ليد، تسلمه يد محتضرة بلغت اليأس ليد على

وشك الرحيل لم يتعبها الأمل بعد. ولم يتبق سوى بعض شرائح إلكترونية لينة بأذرع الناس بالمدينة، وبقايا خيم متراصة بقلب الحياة، في أرض أطلق عليها ضمناً "الأرض الثانية".

المؤلفة في سطور

أميمة صبحي

- كاتبة ومترجمة مصرية.
- مواليد القاهرة، 1984.
- حاصلة على ليسانس الآداب قسم الإعلام من جامعة عين شمس.
- نشرت مقالاتها وترجماتها بالعديد من المجلات والجرائد المصرية والعربية.
- ترجمت كتاب "عقول مريضة" للباحث الهولندي دوي درايسما وصدر عن دار العربي عام 2013، كما ترجمت لنفس الدار رواية "إلينج" للكاتب النرويجي انجفار أمبرشن عام 2016.
- شاركت في سلسلة 3 حواديت للأطفال التابعة للهيئة العامة للكتاب بقصة "الفتاة التي حبست العاصفة" 2017.
- حصلت على المركز الأول في ورشة قصص القاهرة القصيرة التي نظمها معهد جوتة عام 2015 عن قصة "الرأس الذي كُشف غطاؤه". تُرجمت القصة للألمانية وتم مناقشتها في معرض فرانكفورت للكتاب أكتوبر 2015.

البريد الإلكتروني:

omima.sobhy84@gmail.com

في "رؤى المدينة المقدسة"، تنطلق أميمة صبحي من أحداث تبدو عادية، لتصل بها إلى أشد الأحوال غرابة، بهذه الطريقة لا يبدو العالم الذي نعرفه حقيقيًا، إنما مجرد صورة أوليّة عن العالم تقبع خلفها صورة أخرى أعمق، من شخصيات مألوفة، ومن مواقف متكررة في الحياة اليومية، نكتشف خلال القصص الملتحمة فيما بينها بخيط واهن عالمًا موازيًا، تفاصيل مختلفة للحياة، جسرًا يصل بنا إلى عزلة غير مألوفة، وهواجس تشكّل البشر.

أميمة صبحي: كاتبة ومترجمة مصرية، حصلت على المركز الأول في مسابقة ورشة «قصص القاهرة القصيرة» التي نظمها معهد جوتة عام 2015 عن قصة «الرأس الذي كُشِف غطاؤه»، لها عدة مقالات وترجمات منشورة بالمجلات والجرائد العربية، ترجمت كتاب «عقول مريضة»، ورواية «إلينج» عن دار العربي.

تصميم الغلاف: سارة عابدين

دار العين للنشر
Elain Publishing House
9 789774 905292